الاستعارة التمثيلية عند الإمام الطِّيبي دراسة نظرية تطبيقية

عمر عبد الكريم خليل الزعبي، سليمان الدقور *

ملخص

يقوم هذا البحث على معالجة مبحث بلاغي في حاشية الإمام الطيبي على (الكشاف)، وهو الاستعارة التمثيلية، ويهدف إلى بيان مفهوم الاستعارة التمثيلية وأهميَّتِها ومدخولات هذه الاستعارة في حاشية الطيبيِّ (فتوح الغيب)، ويهدف إلى بيان كيفية معالجَة الطيبي لمصطلح (التمثيل) عند الزمخشري، كما يهدف إلى بيانِ موقف الإمام الطيبي من اجتماع الاستعارتين؛ التمثيلية والتبعية، والموازنة بينه وبين علماء البيان في هذه المسألة.

وقد سِرْتُ في هذا البحث وَفق المنهج الاستقرائي لما ذكره العلامة الطيبي على الاستعارة التمثيلية تنظيرا وتطبيقا، والمنهجين: الوصفيِّ والتحليليِّ؛ بعرض رأيه في الاستعارة التمثيلية، وتحليل عباراته، وبيان مذهبه في المسألة.

وتوصل الباحث إلى عدد من النتائج، منها: أنَّ المعتَبَر في التفريق بين الاستعارة التمثيلية والمفردة عند الإمام الطيبي هو الجامع؛ فإن كان الجامع واحدا فهي استعارة مفرَدة، وإن كان هيئة تركيبية فالاستعارة تمثيلية. وهي تشمل ثلاثة أمور: الأمثال السائرة، والتشبيهَ التمثيليَّ إذا فشا استعماله على سبيل الاستعارة، والتراكيب التي تُؤخَذُ فيها الصورة كاملة؛ سواءٌ أكانت تحقيقيَّة، أو تقديريَّة.

وأهمُّها تجويز الطيبي اجتماع الاستعارة التمثيلية والتبعية، وبيان سبقه في هذه المسألة خلافاً لما هو مشهورٌ عند كثير من الباحثين.

الكلمات الدالة: الاستعارة التمثيلية، الطيبي، الكشاف.

المقدمـــة

الحمد لله الذي رفع العلم والعلماء، فنصب راياتهم وخفض الجهل والجهلاء، وجزم بوحدانيته قلوب عباده فخضع لجبروته أهل الأرض والسماء، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد، وبَهَرَ ببلاغته العباد، إمام الفصحاء، وخطيب البلغاء، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد، فقد كان من مظاهر حفظ الله تعالى لهذه اللغة العربية العظيمة؛ أن قيَّض همم علماء اللغة الأجلاء، لفهم واستنباط مفاهيمها ومدارستها، ورصد الظواهر اللغوية وتسجيلها، والتقصي الدقيق والاستيعاب الشاملِ، بمنهجية تتسم بالموضوعية لقضايا اللغة، والحرص الكامل على استيفاء ما يعرضون له من جوانب الدرس البلاغي؛ شرحاً وتعليلاً وتوضيحاً وتعليقاً، هادفين من ذلك خدمة النص المقدسِ القرآن الكريم، من جوانبه البلاغية، خدمة متكاملة الجوانب مستوفيه الأغراض.

واللغة تُعد من أعظم النشاط الحضاري والاجتماعي التي تباهي بها الأمم والشعوب غيرها، وهي المنبع الفكري لعقلية المسلم الحريص على دينه الغيور على هويته وحضارته العريقة، منها يستقي فكره، ويطور مواهبه، ويواكب متغيرات الحياة، بناء على ما يملك من ذخيرة لغوية تساعده على فهم مظاهر الحياة فهما صحيحاً، وتمنحه تصوراً صائباً في استنباط الأحكام، واستيعابا شاملا لفرضيات المرحلة، وجاء الإسلام فزاد اللغة شرفاً وجمالاً وثراءً، ومنحها مكانةً عظيمةً، اتصلت به اتصال الماء بالعود الأخضر، فلم تَحْظَ لغة بالاهتمام مثل ما حظيت به لغتنا العربية من أبنائها، تمثل ذلك في القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وفي سماع كلام العرب بنثره ونظمه، فتحركت العزائم في حفظه وضبطه وفهمه، لأنها ثروة مهمة في النهوض الحضاري بكافة أشكاله، ونشأ الفكر النحوي آلة تسعى في تأصيل القواعد الكلية والأحكام الصحيحة، ثم تبعه الفكر البلاغي في مراحل متعاقبة لعمليات عقلية وذهنية تقوم على إعمال الفكر بدقة متناهية، تضبط النص الصحيح وتؤدي إلى الفهم المستقيم، فكان القران العظيم أولى المهمات التي اعتنى بها العلماء، وتنوعت الرغبات في الاهتمام به من جوانب مختلفة؛ ما بين مفسِّرٍ ومُؤَوِّلٍ ومستشهدٍ ومستنبطٍ ومتعلمٍ، وكلٌّ يدور حول خدمة النص المقدس، فسُمِّيت العلوم الآلية علوما خادمة للنص.

* كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، الأردن. تاريخ استلام البحث 2015/05/31، وتاريخ قبوله 2016/07/04.

© 2018 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

ولم يَأْلُ المُفَسِّرون جهدا في درس هذه الظواهر وَفقا لمناهج البحث المختلفة، فأجالوا فيها نظرهم، وأعملوا فكرهم، وخرجوا بنتائج تدل على استيفاء جوانب المسألة بحثا وتنقيبا، وتقسيما وتفريعا، فعرفوها، وبحثوا في أسبابها وفوائدها، مما جعل بعض الدارسين يفرد جهودهم بمبحث خاص؛ لذا ارتأى الباحث أن يعرض شيئا من تقريراتهم وتحقيقاتهم في هذا البحث المتواضع. رجاء إسداء خدمة لتراث إمام عظيم من علماء اللغة والتفسير، وهو الإمام الحسين بن عبدالله الطيبي (المتوفى سنة 743هـ)، الإمام المشهور، صاحب التصانيف النافعة والتواليف البديعة؛ ومنها: (التبيان في علم المعاني والبديع والبيان)، و(لطائف التبيان في علمي المعاني والبيان)، وحاشيته النفيسة على كشاف الزمخشري، الموسومة بـ (فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب) التي نالت ثناء العلماء وكانت محطَّ أنظارهم، حتى وُصِفت بأنها أنفس حواشي الكشاف، و(الكاشف عن حقائق السنن) وهو شرحه على مشكاة المصابيح في الحديث للخطيب التبريزي، فنحن بحقٍّ أمام جبل من جبال العلم، درس البلاغة في كلام الله وكلام نبيه _ صلى الله عليه وسلم _ دراسة موسَّعة قائمة على التأصيل والتطبيق، فاستحق بذلك أن يكون تراثه العلمي محل اهتمام الباحثين، وأن تكتب فيه البحوث والدراسات، ومن هنا جاء هذا البحث كاشفا عن بعض مكنونات هذا التراث وجواهره، من خلال دراسة مباحث الاستعارة التمثيلية في كتابيه: التبيان، وفتوح الغيب.

مشكلة البحث وأهميته وأهدافه

هذا البحث دراسة بلاغية تفسيرية لجزئية من جزئيات علم البيان عند الإمام الطيبي في كتابِه التأصيلي (التبيان)، وكتابِه التطبيقي وهو حاشية الإمام الطيبي على تفسير الكشاف الموسومة بـ (فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب)؛ حيث إن الإمام الطيبي قد ألَّف في المسائل البلاغية في الجانبين؛ النظري والتطبيقي:

فمن الناحية النظرية أَلَّف كتابه (التبيان في المعاني والبديع والبيان).

وأما الناحية التطبيقية فتمثلت في مؤلفين له؛ أحدهما في التفسير، وهو هذه الحاشية النفيسة، والآخر في شرح

الحديث الشريف، وهو شرحه الحافل على مشكاة المصابيح.

وحاشية العلَّامة الطيبي هي أجلُّ الحواشِي علىٰ (الكشاف) وأنْفَسُها. كما صرَّح بذلك غير واحد من العلماء،

منهم القاضي الشوكاني.

وهي مملوءةً بالنكت والفوائد، مشحونةً باللطائف الفرائد، مذكورٌ فيها غيرُ ما ذكره صاحب (الانتصاف)

و(الإنصاف)، وما ذكره غيرهما من فضائل الأئمة الأشراف. ذكره الفاضل اليمني.

ولما لهذه الحاشية من أهمية فقد تناولها الباحثون بالدراسة والتحليل؛ فدُرست فيها مسائل علم المعاني، ومسائل

علم البديع في رسالتين علميتين متخصصتين، وبقي المجال فسيحا أمام الدارسين لتناول مسائل علم البيان.

لذا أحببت في هذه البحث أن أتناول جزئية من جزئيات هذا العلم وأدرسها دراسة متخصصة، تطرقها من جوانب متعددة، وهي قضية (الاستعارة التمثيلية) عند الإمام الطيبي، بحيث تحاول أن تعطي عنها تصورا وافيا للدارسين؛ خدمةً لتراث هذا الإمام، ومحاولةً لإظهار بعض آرائه البيانية، وكيف وظَّفَها لخدمةِ التفسير، وتجليةِ معاني التراكيب القرآنية.

مشكلة البحث

تتمثل مشكلة البحث في تَتَبُّعِ ما ذكره الإمام الطيبي من مسائل الاستعارة التمثيلية في كتابه التبيان، وحاشيته على

الكشاف، ثم تصنيفها على مطالبِ هذا البحث، مع تحليلها والتعقيب عليها بما يناسبها.

ويجيب هذا البحث عن الأسئلة الآتية:

1- ما مفهوم الاستعارة التمثيلية وما أهميَّتُها عند الإمام الطيبي؟

2- ما مدخولات الاستعارة التمثيلية في نظر الإمام الطيبي؟

3- كيف عالج الطيبي مصطلح (التمثيل) عند الزمخشري في الكشاف؟

4- ما موقف الإمام الطيبي من اجتماع الاستعارتين؛ التمثيلية والتبعية، وما موقف علماء البيان من رأيه في هذه المسألة؟

أهمية البحث

تظهر أهمية هذا البحث من حيث إنه دراسة متخصصة لجزئية من جزئيات علم البيان بحيث تعالج مسائلها من

جوانب متعددة، تحاول أن تعطي تصورا وافيا للدارسين.

أهداف البحث

يسعى هذه البحث لتحقيق مجموعة من الأهداف، منها:

1-بيان مفهوم الاستعارة التمثيلية وأهميَّتِها عند الإمام الطيبي.

2-ذكر مدخولات الاستعارة التمثيلية في نظر الإمام

الطيبي.

3-بيان كيفية معالجة الطيبي لمصطلح (التمثيل) عند الزمخشري في الكشاف.

4-تجلية موقف الإمام الطيبي من اجتماع الاستعارتين؛ التمثيلية والتبعية، وبيان موقف علماء البيان من رأيه في هذه المسألة.

الدراسات السابقة

تناول الباحثون حاشية الطيبي وآراءَه البيانية بالدرس والتحليل، فمن الرسائل التي كتبت في ذلك:

1- مسائل علم المعاني في كتاب فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب المعروف بـ (حاشية الطيبي على الكشاف عرضاً ودراسة).

وهي رسالة ماجستير في قسم الأدب والبلاغة بكلية اللغة العربية في الجامعة الإسلامية، للباحث محمد بن راشد حمد الصبحي. بإشراف الدكتور: علي بن دخيل الله العوفي. والرسالة سُجلت في 1431/3/10هـ، ونوقشت في 1434/2/10هـ، كما هو مذكور في دليل الرسائل العلمية الخاصة بعمادة الدراسات العليا في الجامعة الإسلامية.

وقد عَرَضَ مؤلفها لمسائل علم المعاني في (فتوح الغيب) كما هو بادٍ من عنوانها.

ولا يخفى أن (علم المعاني) المطروقَ في رسالة هذا الباحث، يختلفُ عن (علم البيان)، الذي يعالج هذا البحث إحدى جزئياته.

2- البديع في كتاب فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للطيبي دراسة وتقويما.

رسالة ماجستير للباحثة عائشة بنت أحمد مفرح الشهري، وهي رسالة مسجلة، في طور الإعداد لمَّا تُناقش. كما هو مذكور في دليل الرسائل العلمية الخاصة بعمادة الدراسات العليا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وفيها تعرض الكاتبة لمسائل علم البديع في حاشية الإمام الطيبي، وعلمُ (البديع) الذي تدرسه الباحثة علم مستقل بائن عن علم (البيان) الذي يعالج البحث إحدى جزئياته كما هو مقرر عند علماء البلاغة.

وبذلك يتبين أن الرسالتين السابقتين بَحَثَتَا في علمين من علوم البلاغة؛ هما (المعاني) و(البديع)، وتَرَكَتَا فسيح المجال لبحث (علم البيان)، وهو ما سيحاول هذا البحث خدمته وتيسيره _إن شاء الله_.

منهج البحث

سرت في هذا البحث على كلٍّ من المنهج الاستقرائي، والمنهج الوصفي، والمنهج التحليلي في معظمه، مع الاستفادة من المناهج الأخرى في حال دعا إليها البحث.

- المنهج الاستقرائي: ويتمثَّلُ في دراسة ما ذكره العلامة الطيبي عن الاستعارة التمثيلية في كتابه (التبيان)، وتتبع بعض المواضع التي تعرض فيها لذكر التمثيل في حاشيته على (الكشاف). أو أَوْرَدَ فيها رأيا من آرائه في هذا الموضوع.

- المنهج الوصفي: وذلك بعرض رأي الطيبي في الاستعارة التمثيلية من خلال ما رَقَمَ في (التبيان) وما عالج من مواضع التمثيل في حاشيته (فتوح الغيب).

- المنهج التحليلي: ويتمثَّلُ في تحليل عبارته في (التبيان) و(فتوح الغيب)؛ لبيان ما يعتمده وما يذهب إليه في هذه المسألة.

خطة البحث

يتكون هذا البحث من مقدمةٍ، وتمهيد، وأربعة مطالبَ، وخاتمةٍ تشتمل على أبرز نتائج البحث. على النحو الآتي:

المقدمة: وتشتمل على محددات البحث المرقومة آنفا.

المطلب الأول: مفهوم الاستعارة التمثيلية وأهَمِّيَّتُها عند الإمام الطيبي.

المطلب الثاني: مدخولات الاستعارة التمثيلية في (فتوح الغيب).

المطلب الثالث: مصطلح (التمثيل) بين الزمخشري والطيبي.

المطلب الرابع: اجتماع التمثيلية والتبعية عند (الإمام الطيبي).

الخاتمة، وأذكر فيها أبرز النتائج التي توصَّلَ إليها البحث.

وفي الختام أرجو أن يكون الجُهد أصاب محزَّه، وآتى أُكُلَهُ؛ فذلك غاية القصد، وإن تكن الأخرى فحسبي إخلاص النية، وبذل الجهد، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أُنيب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المطلب الأول: مفهوم الاستعارة التمثيلية وأهَمِّيَّتُها عند الإمام الطيبي

أ- مفهومها:

بَيَّن العلَّامة الطيبيُّ مفهوم الاستعارة التمثيلية بقوله: " التمثيلية: أن يكون الجامع في حكم الواحد، وذلك بأن يُؤخذ وصف إحدى الصور بين المنتَزَع من أمور، فتشبهه بوصف صورة أخرى تشابهه، ثم تدخل صورة المشبَّه في جنس صورة

المشبه به مبالغة، فتكسوها لفظ المشبه به مبالغة من غير تغيير، كما كتب الوليد إلى مروان وقد بلغه أنه متوقف في البيعة: (أما بعد فإني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت)"[1].

فهوَ يُقَسِّم الاستعارة باعتبار الجامع إلى نوعين؛ الأولى: ما كان الجامع فيها واحدا، والثانية: ما كان الجامع فيها بحكم الواحد، فالأولى غير تمثيلية. والثانية تمثيلية.

قال في فتوح الغيب[2]: "الأظهر أن يُقال: المجاز نوعان: مُرْسَلٌ، واستعارة. والاستعارة نوعان: تمثيلية، وغير تمثيلية؛ ككونها تخييلية، أو تحقيقية، أو مكنية".

ب- أهميَّتُها:

الأصل في اللغة أن كل تشبيه فهو تمثيل، وعلى هذا سار المتقدمون من البيانيين، فالتمثيل والتشبيه عندهم لفظان مترادفان[3]. لكن مع تطور العلوم، وتمايز الفنون، وتحديد مصطلحاتها، فإنهم خصصوا التمثيل بالاستعارة التمثيلية؛ لكمال شرف التشبيه فيها على كل تشبيه، وكمال شرفها على كل استعارة، فقد حازت شرف الذات، وشرف الأصل. فالاستعارة التمثيلية هي مَثارُ فرسان البلاغة، وميدان تسابق أفهامهم، والبليغُ لا يرضى بالحمل على الاستعارة المفرَدَة بمجرد إمكانها، بل إذا وُجد مُقْتَضٍ لها أكيد. ويرضى بالحمل على المجاز المركب بمجرد إمكانه؛ لشرفه عليها[4].

وتكمُن أهمية التمثيل في إبراز المعقول في صورة المشاهد المحسوس كأنه لوحة كاملة، يقول العلامة الطيبي: "وَنِعْمَ ما قالَ القاضي: (التَّمثِيلُ إنَّما يُصار إليه [لكشف المعنى الممثل له، ورفع الحجاب عنه، وإبرازه في صورة المشاهَد المحسوس؛ ليُساعد فيه الوَهْمُ العَقْلَ، ويصالحه عليه؛ فإن المعنى الصِّرْفَ إنما يُدركه العقلُ مَعَ مُنازعةٍ من الوَهمِ؛ لأنَّ مِنْ طبعِه الميلَ إلى الحِسِّ وحبَّ المحاكاة؛ ولذلك شاعت الأمثال)"[5].

وتشبيه المعقول بالمحسوس قد يقع في التشبيه المفرد، لكنه في التمثيل يكتسب مزيَّته من وجه الشبه الحاصل من تقارن الصور، وكيفيَّاتها المتضامة، وهو ما نَبَّه عليه العلامة الطيبي بقوله: "وأما جزالة هذا الوجه فإنك تتصور في المركَّب الهيئةَ الحاصلةَ من تقارن تلك الصُّوَر، وكيفياتها المتضامَّة، فيحصُلُ في النفس منه ما لا يحصلُ من المفردات"[6].

المطلب الثاني: مشتملات الاستعارة التمثيلية في (فتوح الغيب):

والاستعارة التمثيلية في حاشية الإمام الطيبي تشمل ثلاثة أمور:

1- المَثَلَ: وهو قولٌ سائرٌ يُشَبَّه مَضْرِبُه بِمَوْرِدِه.

2- والتمثيل: وهو التركيب الذي تُؤخَذُ فيه الصورة كاملة، نحو قوله تعالى: (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) [النحل: ٢٦].

قال في (الفتوح): "اعلمْ أنَّ المُستعار في التمثيل إذا كان قولاً سائراً يُشَبَّه مَضْرِبُه بِمَوْرِدِه سُمِّي مَثَلاً، وإن لم يكن للمضرب مَورِدٌ سُمي تمثيلا، وكلام الله وارد على الثاني دون الأول"[7].

3- التشبيهُ التمثيلي إذا فشا استعماله على سبيل الاستعارة.

أما النوع الأول، وهو المَثَل فقد أوضح الطيبيُّ المراد به بقوله: "ما جُعِل عَلَمًا للتشبيه لحالِ الأول "8، وزاد هذا المعنى إيضاحًا عند قوله تعالى: (مثلُهم كمثل الذي استوقد نارًا) [البقرة: ١٧] حيث يقول الزمخشري: "والمَثَلُ في أصل كلامِهم: بمعنى المِثْل، وهو النَّظِير. يقال: مِثْلٌ ومَثَلٌ ومَثيل، كشِبْهٍ وشَبَهٍ وشَبيهٍ. ثم قيل للقول السائر المُمَثَّلِ مَضْرِبُه بِمَوْرِدِه"[9]. فشرحه الطيبي بقوله: "القول السائر، أي: المشهور الدائر بين الناس، الذي هو كَالعَلَمِ للتشبيه، ولأجل كونه عَلَمًا للتشبيه حُوفِظ عليه وحُمِيَ من التغيير.

قال المَيْداني: حقيقة المثل: ما جُعل كالعلم للتشبيه بالحال الأولى، قال كعبُ بْنُ زُهير:

كانت مواعيدُ عُرْقوبٍ لها مَثَلًا * * * وما مواعيـــدُه إلا الأباطيل[10]

قوله[11]: "مواعيدُ عرقوب" عَلَمٌ لكل ما لا يصلح من المواعيد، والأعلامُ لا تَتَغَيَّر[12].

قوله[13]: (الممثل مضربه بمورده)، مورد المثل: هو الحال التي صدر فيها المثل عن مُرسِلِه، ومَضْرِبه: الحال التي شُبِّهَت بها. أي: تُشَبَّه حالة مضربه بحالة موردِه. مثالُه قولُهم: " في الصيفِ ضيعتِ اللبن". مَوْرِدُ المثل هو: أن دَخْنَتُوس[14] بنتَ لقيطِ بن زرارةَ، كانت تحت عَمْرو بن عمرٍو، وكان شيخا فَفَرِكَتْهُ[15]، فطلقها، ثم تزوجها فتى وأجْدَبت، فبعثت إلى عمرٍو تطلب منه حَلوبةً، فقال عمرو: "في الصيفِ ضَيَّعْتِ اللَّبَن"، فذهبَ مَثَلًا". ومَضْرِب المثل: حصولُ حالةٍ من يَطلب شيئًا قَدْ فَوَّتَه على نفسه في أوانِه؛ لأنَّ فحواهُ مشابِهٌ لذلك، فيُستعارُ المَثَلُ بعينه من غير تغيير، وهو تذكير صيغة " ضَيَّعتِ" لاستعماله في المُذكَّر، بل يُورَدُ هكذا على صيغةِ المؤنث، وإلا لم يكن عَارِيَّةً لذلك"[16].

وينبِّهُ الطيبي في آخر النقل السابق على أن الأمثال _ لورودها على سبيل الاستعارة _ لا تُغيَّر. ويؤيِّد ذلك بقولِ صاحب (المفتاح): " ولورود الأمثال على سبيل الاستعارة لا تُغَيَّرُ"[17].

ويبيِّن الطيبي فائدة ضَرْبِ الأمثال بقوله: " ضَرْبُ الأمثالِ لإدناءِ المُتوَهَّم إلى المعقولِ، وإيرادِ المتَخَيَّل في صورة المُحَقَّق"[18]،كما يبيِّن عُلُوَّ هذا الشَّأن، وأنَّه لا يتصدَّى له أيُّ أحدٍ، بقوله: " ضَرْبُ الأمثال من العلوم الدقيقة، يَستدعي لُطْفَ إدراكٍ وخبرة لا سِيَّما في ذات الله عزَّ وجَلَّ، فلا يَقدِر على الشروع فيه إلا الله والراسخون في العلم"[19].

كما يُلمِع إلى أن لفظ (المثل) قد يُستَعمَلُ في أصل معناه، بمعنى الصفة، وقد يُستَعمَلُ مجازا بعد النقل، بمعنى: الحالة العجيبة التي هي في نُدْرتها وغرابتها وحِكمتها كالمَثَل السائر. يقول: "ورُبَّما استُعمل المَثَلُ في أصله الذي كان له من الصفةِ قبل النقل، فَيُقال: مَثَلُك وَمَثَل فلان، أي: صِفَتُك وصِفَتُه، وقال تعالى: (مَثَل الجنة التي وُعد المتقون) [الرعد: ٣٥]، [محمد: 15]، أي: صفَتُها "[20].

ويقول في موضع آخر: "المَثَل بعدَ النقل استُعيرَ لمعنى الحال أو القصة. فهو مجازٌ بعد النَّقْل"[21].

ومما يزيد هذا المقام وضوحا قول أبي السُّعود _ رحمه الله _ عند قول الحكيم الخبير _ سبحانه وعَزَّ _: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ) [يس: ١٣]: "ضربُ المَثَلِ يُستعملُ؛ تارةً في تطبيقِ حالةٍ غريبةٍ بحالةٍ أُخرى مثلِها، كما في قوله تعالى: (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوحٍ وامرأت لوط) [التحريم: ١٠].

وأخرى في ذكر حالةٍ غريبةٍ وبيانِها للنَّاس من غير قصدٍ إلى تطبيقِها بنظيرةٍ لها، كما في قولِهِ تعالى: (وضربنا لكم الأمثال) [إبراهيم: ٤٥] على أحدِ الوجهينِ، أي: بيَّنا لكم أحوالاً بديعةً هي في الغرابةِ كالأمثالِ، فالمَعْنى على الأوّلِ: اجعلْ أصحابَ القريةِ مثلاً لهؤلاء في الغُلوِّ في الكفرِ، والإصرارِ على تكذيبِ الرُّسلِ، أي: طبِّق حالَهم بحالهم على أنَّ (مَثَلًا) مفعولٌ ثان لـ (اضرب) و(أصحاب القرية) مفعولُه الأوّلَ، أُخِّر عنْهُ ليتَّصل بهِ ما هو شرحُه وبيانُه.

وعلى الثَّاني: اذكُرْ، وبيِّن لهم قصَّةً هي في الغرابةِ كالمَثَل"[22].

وأما النوع الثاني _ وهو التركيب الذي تُؤخَذُ فيه الصورة كاملة _ فمن أمثلته عند الطيبي قول الله تعالى: (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) [النحل: ٢٦].

وقد أوضح الزمخشري الاستعارة في هذه الآية على وجه لم يستطبه الطيبي، حيث قال في الكشاف: "وهذا تمثيلٌ، يعني: أَنَّهُم سَوَّوْا منصوباتٍ؛ ليمكروا بها الله ورسوله، فَجَعَلَ الله هلاكَهم في تلك المَنْصوبَات، كحال قوم بَنَوا بُنياناً، وعمَدوه بالأساطين، فأتى البُنيانَ من الأساطين؛ بأن ضُعْضِعَت، فسقطَ عليهم السقفُ وهلكوا. ونَحوُه: مَنْ حَفَر لأخيه جُبًّا، وَقَع فيه مُنْكَبًّا. وقيل: هو نُمرودُ بنُ كنعانَ حين بنى الصَّرحَ ببابلَ طولُه خمسةُ آلاف ذراعٍ. وقيل: فرسخانِ، فأَهَبَّ الله الريحَ فخَرَّ عليه وعلى قومِه فَهَلكوا"[23].

فَعَقَّب عليه الطيبي بقوله:" هذا تمثيل حالهم في أنهم سَوَّوْا منصوباتٍ ليمكروا الله، فجعل الله هلاكهم فيها، كحال قوم بَنَوا، إلى آخره، وهو استعارة تمثيلية؛ لأن التشبيه إنما وقع في الحالِ والأمورِ المُنْتَزَعة، وعلى هذا كان من الواجبِ فيه مراعاةُ مفرداتِ المعاني من الجانبَين، وعلى ما قرَّره أخل في المشبَّه به معنًى في المشبه؛ لأنَّ مَن بنى بُنيانا وعمده بالأساطين، لا يعمَد فيه المكرَ كمَنْ يُسوي المنصوبات، نعم، لو قدر أن يبنيَ بنيانا ويسوِّيَ فيه شِبهَ المنصوباتِ بلطائفِ الحِيَل، ويتخذ مأدبة ليكيد بها عدوَّه، فينقلبَ عليه من حيث لا يشعرُ، ويَسلمَ العدو، ونحو بناء نُمرودَ الصَّرْحَ، كما ذَكَرَ، لَصَحَّ، ولعله قصدَ ذلك؛ ولذلك استشهد بها"[24].

ويظهر من هذا المثال مدى عناية الطيبي بعبارة الكشاف، توجيها واستدراكا، فهو لا يُمِرُّ القول حتى يميزه، ويَسبر ما فيه من أحوال المُمَثَّل، والمُمَثَّل له، فالمُشبَّه وإن كان فرعا في إلحاقه بالمُشبّه به لكنَّه أصل في إيراد المشبَّه به[25]؛ فيجب تحرِّي الدقة في الحديث عن تلك الأحوال.

وهذا النوع من الاستعارة التمثيلية قد يجريها الطيبي مع النص على تسميته (استعارة تمثيلية) كما مَثَّلنا. وقد يكتفي بتسميته (تمثيلًا)[26].

وقد جعل الطيبيُّ هذا النوع من التمثيل على قسمين: تحقيقيٍّ، وتقديريٍّ:

1- أما التمثيل التحقيقي: وهو الذي يكونَ (المُمَثَّل به) فيه أمورًا لها تحقُّقٌ في الخارج[27]، فقد مَثَّل له الطيبي بقوله تعالى: (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) [التوبة: 32]، حيث يقول الطيبي _ طَيَّب الله ثراه _: "هو استعارة مصرّحة تمثيلية، والمستعار جُملةُ الكلام؛ لأن حالَهم في محاولة إبطال نبوة محمد _ صلى الله عليه وسلم _ بالتكذيب هو المشبَّه، وهو مَطوِيٌّ، والمشبَّه به حال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق، المَعني بقوله: (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم)، و هو الطرف المذكور"[28].

وله نظائر أخرى كثيرة في (فتوح الغيب)[29]. وليس في هذا النوع من التمثيل خلاف.

2- وأما التمثيلُ التقديريُّ[30]، فينطوي تحتَه حالتان:

أ- الأولى: أن يكونَ المُمَثَّل به أمورًا متخيَّلةٍ لا تحقُّق لها في الخارج ولا في الذهن، وقد مَثَّل لها الطيبيُّ بقوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) [الأحزاب: ٧٢]، قال في التبيان: مُثِّلت حالُ التكليفِ في صعوبته وثِقَل محمله بحاله المَفروضةِ لو عُرِضت على السموات والأرض [والجبالِ، فأبَيْنَ أن يحملنها وأشفقن منها]"[31].

وهذا الذي ذَكَرَه الطيبي في الآية أحد وجهين ذكرهما الزمخشري في (الكشاف)، أوَّلُهما: أنّ هذه الأجرامَ العِظامَ من السماوات والأرض والجبالِ قد انقادت لأمر الله _ عزّ وعلا _ انقيادَ مِثلِها، وهو ما يتأتَّى من الجمادات، وأطاعت له الطاعة التي تصح منها وتليق بها؛ حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجاداً وتكويناً وتسوية على هيئاتٍ مختلفة وأشكال متنوعة، كما قال: (قالتا أتينا طائعين) [فصلت: 11] فالمراد بالأمانة: الطاعةُ؛ لأنها لازمة الوجود، كما أن الأمانة لازمة الأداءِ. وعرضها على الجمادات وإباؤُها وإشفاقها: مجاز[32].

والثاني: أنَّ ما كُلِّفَه الإنسانُ بلَغَ من عِظَمِهِ وثِقَلِ مَحْمَلِه: أنه عُرِض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه وأشدِّه أن يتحمّله ويستقلَّ به، فأبى حمله والاستقلالَ به وأشفق منه، وحمَلَه الإنسان على ضعفِه ورخاوةِ قوَّتِه (إنه كان ظلوما جهولا) حيث حمل الأمانة ثمَّ لمْ يَفِ بها[33].

وقد فرَّق الطيبي بين هذين الوجهين، بأنَّ التمثيل _ على الأول _ واقعٌ في هذه الأجرام العظام، حيث شُبِّهت حالة انقيادها وأنها لا تَمتنع عن مشيئة الله وإرادته إيجاداً وتكوينًا وتسويةً بهيئات مختلفة بحال مأمورٍ مطيعٍ منقادٍ لا يتوَقَّف عن الامتثال إذا توجَّه إليه أمْرُ آمِرِه المطاعِ كالأنبياء وأفراد المؤمنين، فعلى هذا التأويل يكون معنى: (فأبين أن يحملنها) أنها بَعْدَ ما انقادَتْ وأطاعَتْ ثبتَتْ عليها، وأدَّت ما التزمت من الأمانة، وخرجت عن عُهْدتِها، سِوى الإنسان، فإنه ما وَفَّى بذلك وخاسَ به، (إنه كان ظلوما جهولا).

وعلى الثاني: بعكس الأول؛ فإنه شَبَّه حالة الإنسان وهي ما كُلِّفَه من الطاعةِ بحالةٍ مفروضةٍ لو عُرِضَت على السماوات والأرض والجبال لأَبَتْ حَمْلَها وأشفقت منها لعِظَمِهِ وثِقَلِ مَحْمَلِه، وحمله الإنسان على ضعفِه ورخاوةِ قوَّتِه، إنه ظلومٌ على نفسه جاهلٌ بأحوالها؛ حيث قَبِلَ ما لم يُطقْ عليه هذه الأجرام العظام[34].

ثم لم يسلِّم الطيبيُّ عَدَّها من المجاز، بل استطاب كونها من وادي الحقيقة، فنقل عن محيي السنة قولَه: عرضَ اللهُ الأمانة على أعيانِ السماواتِ والأرضِ والجبال _ وعليه جماعةٌ من التابعين وأكثرُ السلف _ فقال لَهُنَّ: أَتَحْمِلْنَ هذه الأمانةَ بما فيها؟ قُلْن: وما فيها؟ قال: إن أحسْنتُنَّ جُوزيتُنَّ، وإن عَصيْتن عوقِبْتُنَّ، قلن: لا يا رب، لا نريد ثوابا ولا عقابا خشيةً وتعظيمًا لدين الله، وكان العرْض تخييرًا لا إلزامًا، ولو أُلزَمَهُنَّ لم يمتَنعْن من حملِها، والجماداتُ كلُّها خاضعةٌ لله ساجدةٌ له؛ لقوله تعالى: (قالتا أتينا طائعين) [فصلت: 11]، وقوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) [الحج:18]، قال بعضهم: رَكَّبَ الله فيهِنَّ العقلَ والفهم حين عرض الأمانة عليهِنَّ حتى عَقَلْنَ الخِطاب وأجَبْنَ بما أُجِبْنَ[35].

ب- الأخرى: أن يكونَ المُمَثَّل به أمورًا موجودة في الذهن، وتُسمَّى (عقلية) ومن أمثلته عند الإمام الطيبيِّ قوله تعالى: (ختم الله على قلوبهم) [البقرة:7] في وجهٍ[36]، قال في التبيان: "ولك أن تقيس عليه[37] قوله تعالى: (ختم الله على قلوبهم) على أصول المعتزلة، بأن تُضرب الجملة كما هي مثلًا، مُثِّلتْ حال قلوبهم فيما كانت عليها من التجافي على الحق بحال قلوب مفروضة ختم الله عليها حتى لا تَعِيَ شيئا ولا تفقه كقلوب البهائم"[38].

ولا يُسَلَّم للطيبي أن التمثيل في هذه الآية جارٍ على أصول المعتزلة فحسب، بل جَوَّزه غيرهم من أهل السنة كأبي السعود[39]، والشهاب الآلوسي[40] وابن عاشور[41]، وغيرِهم. وكلام هؤلاء الأكابر ينادي على أن القول بالتمثيل في هذه الآية ليس مقصورا على رأي المعتزلة وأصولهم كما ذكر الطيبيُّ _ رحمه الله _. ولعله يشير إلى أن المعتزلة قد اضطروا إلى التمثيل في مثل هذا الموضع فرارًا من أن يُسندوا الختم إلى الله؛ لقُبح الختم؛ فلا يُسنَد إليه تعالى بِزَعْمِهِم، فإذا جُعل تمثيلاً أفاد أنه ليس من الله منعٌ لقلوبهم من قَبول الحق، كما أنه ليس من المتردد في أمرٍ تقديم الرجل وتأخيرها[42]. ونحن في غُنيةٍ عن الاستعارة التمثيلية؛ لاعتقادنا أنه لا يقبُح منه تعالى شيء[43].

ويمكن أن يقال _ توضيحًا لهذا المقام _: إن استعمال الاستعارة التمثيلية التقديرية على درجات ثلاث:

1- أوَّلُها: ما استُعمِلَ استعمالًا صحيحًا، نحو قول الله تعالى: (ختم الله على قلوبهم) في وجهٍ، فليس هذا مختصًّا بأصول المعتزلة كما يوهِم كلام الطِّيبي، بل قد يتفق معهم أهل السنة فيه.

2- ما استُعمل استعمالًا متكَلَّفًا؛ بأن حُمل على المجاز مع كون الحقيقة أولى، ويمثَّل له بقول الله سبحانه: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ)، وقد تقدَّم القول عليها[44].

3- ما استُعْمِلَ للرَّدِّ على أهل السُّنَّة، من ذلك ما استعمل الزمخشري من (التمثيل)؛ لنفي رؤية وجه ربنا الكريم سبحانه يوم القيامة، حيث قال عند قول الكريم _ لا حَرَمَنا لذّة النَّظر إلى وجهه _: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) [المطففين: ١٥].

قال: "وكونهم محجوبين عنه: تمثيلٌ للاستخفافِ بِهِم

وإهانتِهم؛ لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرمين لديهم، ولا يُحجَبُ عنهم إلا الأدنياءُ المُهانون عندهم"[45].

ويَرُدُّ عليه الطيبي _ مستظهِرًا بالنظم العزيز _: " قوله (وكونهم محجوبين عن ربهم.تمثيلٌ للاستخفاف بهم)، أي: مُثِّلت حالهم في إهانتِهم عند الله، وإنزالِ السخط عليهم بحال من يُحجب عن بعض السلاطين لذلك.

(الانتصاف): هي عند أهل السنة على حقيقتها، وهي من أدلة الرؤية. لَمَّا خَصَّ الله الكفار بالحجاب دَلَّ على أنه مرفوعٌ عن الأبرار، ولا معنى لرفع الحجاب إلا الإدراك [بالعين]، فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال؟[46]

وقلتُ _ والعلم عندَ الله _: ويساعدُه النَّظمُ؛ لأن قوله: (كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين) [المطففين: ١٨] مقابلٌ لقوله: (كلا إن كتاب الأبرار لفي سجين) [المطففين:٧]، والسِّجين _ كما فَسَّره المصنف، وعليه أكثر المفسرين _: هو تحتَ الأرض السابعة، وهو مَسكنُ إبليس وذرِّيته، ولذلك قُوبِلَ بقوله: (يشهده المقربون) [المطففين:٢١]، فيكون قولُه: (إن الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون) [المطففين:٢٢-٢٣] مقابلًا لقوله: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالو الجحيم) [المطففين:١٥-١٦].

وقولُه: "ينظرون" مُطلَقٌ، ليس فيه أنهم ينظرون إلى ماذا، فدلَّ قوله محجوبون عن ربهم، على أنهم غيرُ محجوبين عنه. ويؤيِّدُه قوله عز وجل: (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) [المطففين:٢٤]؛ لأنه في معنى قوله: (وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة) [القيامة:22-23]، وقولُه: (يُسقون من رحيق مختوم) [المطففين:٢٥] إلى قوله: (عينا يشرب بها المقربون) [المطففين: ٢٨]؛لأنه في معنى قولِه: (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) [الإنسان:٢١] ورَوَى محيي السنة أنه سُئل مالك عن هذه الآية، قال: " لما حُجب أعداؤُه فلم يَرَوْهُ تَجَلَّى لأوليائه حتى رأوه. وقال الشافعي: فيها دلالةٌ على أن أولياءَ اللهِ يَرَوْنَ الله، وقال الحسنُ: لو عَلِم الزاهدون والعابدون أنهم لا يرون ربهم في المعادِ لَزَهِقت أنفُسُهم في الدنيا)"[47].

وقد بالغ الزمخشري في استعمال هذا النوع من التمثيل، فجعله منفاةً لكل ما خالفَ أصول مذهبه الاعتزالي، يَدُلُّ على ذلك تَتَبُّعُ استعمالِه كلمةَ (تمثيل)[48] في تفسيره. وقد تتبَّع الطيبيُّ المواضع التي نسج الزمخشري عليها خيوطَ تمثيلٍ واهنةً لنصرة اعتزالِه فبدَّدها بريحِ أهل السُّنَّة. مبيّنًا وجه الصواب فيها. كما مَرَّ في الآية السابقة.

وأما ثالث هؤلاء الأنواع فهو التشبيهُ التمثيلي إذا فشا استعماله على سبيل الاستعارة. بَيَّن ذلك العلامة الطِّيبِيُّ عند قول الله تعالى: (ختم الله على قلوبهم) [البقرة: ٧]، حيث قال شارحًا عبارة الكشاف _ "ويجوز أن تُضرَبَ الجملةُ كما هي _ وهي (ختم الله على قلوبهم) _ مَثَلًا"[49]_: " هذا الوجه.. مبنيٌّ على التمثيل، وهو الذي عَنَاهُ صاحب (المفتاح) بِقوله: "التشبيه التمثيلي متى فشا استعماله على سبيل الاستعارة [لا غير] سُمِّيَ مَثَلًا "[50].. وهنا الاستعارة في الجملة برأسها، وإليه الإشارة بقوله: (أن تُضرَبَ الجملةُ كما هي مَثَلًا)"[51]"[52].

المطلب الثالث: مصطلح (التمثيل) بين الطيبي والزمخشري

ولما كان الزمخشري متقدمًا زماناً؛ فقد أطلق مصطلح (التمثيل) بمدلولات مختلفة؛ هي أقرب إلى الاستعمال اللغوي؛ فهو يطلقه على التشبيه، وعلى الاستعارة التمثيلية، وعلى الاستعارة في المفرَد، وعلى فرض المعاني[53].

وقد اعتنى الطيبي ببيان استعمال الزمخشري لهذا المصطلح في دُروبِ (كَشَّافه)، فبَيَّن أوَّلا أنَّ الاستعارة التمثيلية عند الزمخشري غَلَب عليها اسم (التمثيل)، وأن التمثيلَ عنده قَسِيمُ الاستعارة، فكأنه أَطلَقَ مصطلَحَ (استعارة) [54] على ما كان جامعُه[55] من الاستعارة واحدًا، وخَصَّ ما كان الجامع فيه صورةً[56] باسم التمثيل، يقول الطيبيُّ _ طيَّبَ الله ثراه _: "الاستعارة التمثيلية غَلَبَ عليها اسم التمثيل، ولا يكادُ يُطلِق[57] عليها اسمَ الاستعارة، كما استقرَينا من كلامه، منه ما قال في قوله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعا) [آل عمران: ١٠٣]: "يجوزُ أَن يكون تمثيلا لاستظهاره به، ووثوقه بحمايته، بامتساك المتدلي من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه، وأن يكون استعارة"[58]، وبقية الاستعارات يُطلِق عليها اسمَ الاستعارة مطلقا، ونحوُه قولُ أبي الطيِّب:

فإن تَفُقِ الأنام وأنت منهم... فإن «المسكَ» بعض دم الغزال[59]"[60].

وقد يطلق الزمخشري اسم (التمثيل) على التشبيه التمثيلي، كما في قولِه تعالى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) [الأنعام: ١٢٢]. يقول الزمخشري: "مَثَّلَ الذي هداه الله بعد الضلالة، ومَنَحَهُ التوفيق لليقين الذي يُميِّز به بين المُحِقِّ والمبطل والمهتدي والضال، بمن كان ميْتاً فأحياه الله، وجعل له نوراً يمشي به في الناس مستضيئاً به، فيميِّز بعضَهم من بعض، ويَفصِل بين حُلاهُم. ومن بقي على الضلالة بالخابطِ في الظُّلُمات لا يَنفَكُّ منها ولا يَتَخلَّص"[61]. ويبين الطيبي أنَّ المقصودَ تمثيلُ حالة المهتدي بعد الضلالة، بحالة الباقي على الضلالة، الخابط في الظلمات، فالتشبيه التمثيلي حاصلٌ من تشبيه حالةٍ بحالة[62].

وقد يُطلِق اسم (التمثيل) على الاستعارة التمثيلية، كما في

قولِ الحَقِّ تبارك وتعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) [آل عمران:103]، حيث يقول صاحب الكشاف: "قولهم: اعتصمتُ بحبله، يجوز أن يكون تمثيلًا لاستظهاره به، ووثوقه بحمايته، بامتساك المتدلي من مكان مرتفع بحبل وثيقٍ يَأْمَنُ انقطاعه "[63]. ويوضح الطيبي مراده بالتمثيل _ هنا _ بقوله: "استعارة تمثيلية "[64].

وقد يكون مراد الزمخشري بـ (التمثيل) الاستعارة التمثيلية، فيبين الطيبي ذلك، لكن من غير أن يسمِّيَها، كما فعل عند قوله تعالى: (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها) [الحديد:17]، حيث يقول الزمخشري:" هذا تمثيلٌ لأثر الذكر في القلوب، وأنه يحييها كما يحيي الغيث الأرض"[65]، فيوضحه الطيبيُّ بقوله: "يعني: لما استبطأ خشوعَ قلوبِ المؤمنين عند سماعِ القرآن، أرشَدَهم إلى إزالةِ تلك القسوةِ التي مَنَعتِ القلب عن تأثير الذِّكْر فيه، وإنزالِ تلك السكينةِ عليه باللَّجأ إلى الله، واستنزالِ ما يستعدُّون به لقَبول تلك المواهبِ الرَّحمانيَّة، فأعلمهم أنه وحده هو القادرُ على ذلك، كما أنه وحدَه يُحيِي الأرض بعد موتها، وفيه إشارةٌ إلى نفيِ الحولِ والقوةِ من الغير"[66].

وقد يُطلق الزمخشري (التمثيل) على الاستعارة في المفرَد، كما في قوله تعالى: (ولما سكت عن موسى الغضب) [الأعراف:154] حيث يقول: " هذا مَثَلٌ "[67] فيوضح الطيبي مراده بقوله: "أي: ليس بحقيقة، وهو استعارة مكنية مقارنة بالتخييلية "[68].

وقد يُطلق الزمخشري (التمثيل) على فرض المعاني، كما في قوله تعالى يتَوَعَّدُ مَنْ يُشْرِك من خلقه، حتى ولوا كانوا ملائكةً _ وحاشاهم _: (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) [الأنبياء: ٢٩]، حيث يقول الزمخشريُّ: " فَاجَأَ بالوعيد الشديد، وأنذرَ بعذاب جهنمَ من أشرك منهم إن كان ذلك على سبيل الفَرَضِ والتَّمْثِيل، مع إحاطة علمه بأنه لا يكون، كما قال: (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) [الأنعام: 88] قَصَدَ بذلك تفظيعَ أمرِ الشِّرك، وتعظيم شأن التوحيد"[69]. فيبين الطيبي أن التمثيل هنا وارد على سبيل فرض المعاني، لا تعلُّق له بالمجاز من قريب ولا من بعيد، يقول: " هوَ وعيدٌ شديدٌ؛ ليُؤذِنَ بأن الشِّركَ أمرٌ فظيعٌ، وأنَّهم _ مع جلالتهم _ إن صدرَ منهمُ الشركُ، تَرتَّب عليه ذلك العذابُ، نحوَ قوله تعالى: (لئن أشركت ليحبطن عملك) [الزمر:65]"[70].

وقد يكتفي الزمخشري في التعبير عن الاستعارة التمثيلية بقوله (مجاز) فيبين الطيبي أنه يقصد الاستعارة التمثيلية، كما في قوله تعالى: (أفنضرب عنكم الذكر صفحا) [الزخرف:5]، قال صاحب الكشاف: (أفَنُنَّحي عنكم الذكر ونذودُه عنكم، على سَبيل المجازِ) وشرحه الطيبي: " أي: الاستعارةِ التمثيلية، استعار للتَّنحِيَة "الضَّرْبَ" الذي بمعنى الذِّياد، بعد أن شَبَّه حالة هذه التنحية بحالة ذَوْدِ غرائب الإبل عن الحوض، وبُولغ فيه، ثم استعمل هنا ما كان مستعملا هناك. قال الميداني: "ضرَبَه ضَرب غرائب الإبل، ويُروى: أضْرِبْهُ ضَرْبَ غَرِيبةِ الإبِلِ؛ وذلك أن الغَريبة تزدحم على الحِيَاض عند الوِرْد، وصاحب الحوض يَطْرُدها ويضربها بسبب إبله، ومنه قول الحجاج في خُطْبته يُهَدِّد أهلَ العراق: "والله لأضْرِبَنَّكُمْ ضَرْبَ غرائب الإبل"، قال الأعشى:

كَطَوْفِ الغَرِيبَةِ وَسْطَ الحِيَاضِ... تَخَافُ الرَّدَى وَتُرِيدُ الجِفَارَا[71]

يضرب في دَفْعِ الظالم عن ظلمه بأشدِّ ما يمكن. ا.هـ."[72][73].

المطلب الرابع: اجتماع التمثيلية والتبعية عند (الإمام الطيبي):

شَغَلَتْ مسألة اجتماع الاستعارة التمثيلية والتبعية بالَ البلاغيين، فأُجريت لأجلها المناظرات والمحاورات، واحتلت حيِّزا كبيرا من الصفحات، في الحواشي المهمات. بين مُجيزٍ لاجتماع التمثيلية بغيرها، ومانع، أو متوقفٍ تأدبًا مع أرباب المذهبين.

وقد اشتهر هذه الخلاف بين السعد التفتازاني (ت793هـ) والسيد الشريف (ت 816هـ) بسبب المناظرة التي جرت بينهما في مجلس تيمور خان.

ورغم أن الخلاف اشتهر بين هذين العَلَمين، ونُسب إليهما حتى لكأنهما هما اللَّذَانِ حازا إليه قَصَبَ السَّبْقِ، فإن الطيبي (ت 743هـ) أسْبَقُ من السعد (ت 793هـ) في تجويز اجتماع التمثيلية والتبعية، وهو ما دار في خَلَدي، وتردّدت في إيراده حتى ظفرت بمن يصَرِّح بذلك، وهو الشهاب الخفاجي _عليه شآبيب الرحمة_ فعلمت أني آوي إلى رُكن شديد في إيراد هذه النكتة، يقولُ: " ذهب الفاضل المحقق إلى جوازه متمسكاً بما صرح به العلامة[74] في مواضع من كشافه كما صرّح به هنا، وقد سبقه إليه الطيبي"[75]، فتَقَوَّى لدي أن الطيبي أبوعُذْرَة هذه المسألة[76].

وهذا الخلاف بين الشيخين[77] في هذه المسألة مما سارت به الركبان، وعُقدت له المجالس، وصُنِّفت فيه الرسائل، وأول ما وقع بينهما في مجلس تيمورخان بسمرقند، وكان الحَكَم نعمان الخوارزمي المعتزلي فحكم _ والظاهرُ أنه لأمرٍ ما_ للسيد السند، فصدَّرَه السلطان في محل السعد، فقيل له في لذلك، فقال: نفرض أنهما متساويان في العلم أليس لهذا مزية

الشرف؟! فانْحَرَّ السعد حتى مات، ثم إن السلطان فعل مثل ذلك بالسيد جزاء وفاقا، فأجلس ابن الجوزي مكانه وقال، أَلَا أُوَلِّي رجلا إذا توقف الناس في السنة راجع المصطفى جهارا[78] رحم الله الجميع[79].

فمن الفضلاء بعدهم من انتصر للسيد، ومنهم من مال للسعد، ومنهم من لم يتكلم في الترجيح أصلا؛ تأدُّبًا في حقهما. وأكثر المحققين على مذهب السعد، وأطنب العصام في أطوله لتأييده ورد مذهب السيد، وللمولى _ الشهير بطاش كبري زاده _ رسالتان انتصر فيهما للعلامة التفتازاني واستوفى الكلام على ما جرى بينهما في المناظرة[80].

جَوَّز العلَّامة الطيبي اجتماعَ الاستعارة التمثيلية والتبعية، وأورد أمثلة للاستعارة التمثيلية الواقعة على سبيل التبعية في الحرف، وأمثلة للتمثيلية الواقعة على طريق التبعية في الفعل.

فمن الأول قوله تعالى: (أولئك على هدى من ربهم) [البقرة: ٥]، حيث يقول الطيبي: " هو استعارة تمثيلية، واقعة على سبيل التبعية، يَدلُّ عليه قوله: (شُبهت حالهم) وتقريره أن يقال: شبهت حالهم، وهي تمكُّنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسكهم به، بحال من اعتلى الشيء وركبه، ثم استعير للحالة التي هي المشبَّه المتروك كلمةُ الاستعلاء المستعملة في المشبه به.

ويدلك على أن الاستعارة التبعية تمثيلية الاستقراء، وبه يشعر قول صاحب " المفتاح "في استعارة "لعلّ"[81]: فَتُشَبَّهُ حالُ المكلف – وكَيْتَ، وكَيْتَ – بحال المرتجي المخيَّر. إلى آخره. وَلْيكن هذا المعنى على ذُكْرٍ منك؛ لينبِّهك على أن أحد وجهي المجاز في (ختم الله) من الاستعارة والتمثيلِ على هذا"[82].

ومن الثاني قوله تعالى: (ختم الله على قلوبهم) حيث يقول الطيبي: "قوله[83]: (فأن تُمَثَّلَ) أي: تُشبَّه حالةُ قلوبِهم وسمعِهم وأبصارِهم، وهي عدم انتفاعها في الأغراض الدينية بسبب منع قبول الحق، بحالة أشياءَ ضُرِب حجابٌ _أي: حدٌّ فاصل _ بينها وبين الاستنفاع بها بالخَتْمِ والتَّغشِية، ثم استعير لجانب المشبه لفظ "الخَتْمِ" جاعلا القرينةَ نِسْبَتَه إلى القلوب، فيكون من الاستعارة التمثيلية الواقعة على طريق التبعية كما مرَّ في قوله: (أولئك على هدى) [البقرة: 5]، ويُؤَيِّده قولُه بُعَيْدَ هذا: (ويجوز أن تُضرَبَ الجُملة كما هي مثلاً).

وَدَلَّ على أن التشبيه مُرَكَّبٌ قوله: (بأشياءَ ضُرب حجابٌ بينها وبين الاستنفاع بها)؛ لأنه مشبَّه به، ولا بُدَّ من تقدير مثله في جانب المشبَّه فيقال: (فَأَنْ تُمَثَّل) أي: تُشَبَّه قلوبُهم؛ لأن الحقَّ لا ينفذ فيها ليَسْتنفعوا بها في الأغراض الدينية، فظهر أن الاستعارةَ.. تَبَعِيَّة واقعة على طريق الاستعارة التمثيلية، فَصَحَّ قولُه: (لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة)، وإنما قلنا: تَبَعِيَّة؛ لأن (ختَم) فِعْلٌ، والاستعارة واقعةٌ في مصدره، والمراد ما في القلوب من المَنْع مِنْ قَبولِ الحَق[84]".

وسأتناول الآية الأولى، وهي قولُه تعالى: {أولئكَ على هدى من ربِّهم}؛ لبيان مذهب الطيبي في اجتماع التمثيلية بغيرها، ومقارنته بمذاهب المفسرين والبُلغاء، فأقول: تحصل لي في هذه الآية بعد النظر في التفاسير المعتنية بالبلاغة خمسة أقوال _ تبعاً لتجويز اجتماع التمثيلية والتبعية أو منعه _، وإليك بيانها:

1- القول الأول: استعارة تمثيلية فقط، وهو أحد الأوجه التي أجازها السيدُ الشريف، وأبو السعود[85].

وتقريرها على مذهبه أن يقال: شبهت الهيئة منتزعة من المتقين والهدى وتمسكهم به وتمكنهم منه وثباتهم عليه ومحاولتهم الزيادة به والسير في طريق الخيرات، بالهيئة المنتزعة من الراكب والمركوب واعتلائه والقدرة والتمكن من تصريفه؛ لأن الاستعلاء أقوى أنواع تمكن شيء من شيء[86].

هكذا قرر كلام (الكشاف) فيها شارحوه، والطيبي، والتحتاني، والتفتازاني، والبيضاوي[87].

2- القول الثاني: أن الاستعارة في الآية استعارة تصريحية تبعية فقط في حرف (على) هذا اختاره القزويني في (الكشف)، والسيد الجرجاني، وجوزه أبو السعود[88].

بأن شُبِّه تمسك المتقين بالهدى باستعلاء وتمكن الراكب على مركوبه في التمكن والاستقرار، فاستعير له الحرف الموضوع للاستعلاء وهو (على)[89].

وطريقة إجرائها على طريقة القوم المشهورة: شُبِّه مطلقُ ارتباط بين مهدي وهدى – بمطلق ارتباط بين مستعلٍ ومستعلىً عليه؛ بجامع التمكن في كلٍّ، فسرى التشبيه من الكليين للجزئيات، ثم استعيرت (على) من جزئي من جزئيات المشبه به، لجزئي من جزئيات المشبه على طريق الاستعارة التصريحية التبعية والقرينةُ (هدى) [90].

3- القول الثالث: جوز السيد وأبو السعود وجهاً ثالثاً، وهو أن يكون هنا استعارة مكنية مفردة في لفظ (هدى)؛ بأن شُبه الهدى بمركوب، وحرف الاستعلاء قرينة على ذلك على طريقة السكاكي في رد التبعية للمكنية[91].

3- القول الرابع: الجمع بين الوجه الأول والوجه الثاني: أي بأن يكون فيها تمثيلية وتبعية في وقت واحد.

وهذا اختاره الطيبي والتفتازاني ومُلَّا خُسْرَوْ[92]، والفاضل اليمني، والشيخ عبد الحكيم السيالكوتي[93]، والمولى أحمد[94] وصاحب البسيط، والمحققون من شراح المفتاح، والعصام في الأطول[95].

وطريقة إجرائها على هذا أن تقول: في الآية استعارة تمثيلية تبعية: حيث شُبِّهت حال أولئك وهي تمكنهم من الهدى

واستقرارهم عليه وتمسكهم به، بحال من اعتلى الشيء وركبه، ثم استعير للحال التي هي المشبه المتروك كلمةُ الاستعلاء المستعملة في المشبه به[96]، فلجريانها في الحرف تكون تبعية، ولكون كل من الطرفين (أي الهيئة المشبهة، والهيئة المشبهة بها) حالة إضافية منتزعة من أمور متعددة تمثيلية، وعلى هذا تكون (على) مجازا متجوزا بها؛ لأنها استعيرت من المشبه به للمشبه، ويكون هذا الحرف (على) مع ما يدل عليه بالالتزام من طرف التشبيه[97].

5- القول الخامس: الجمع بين الوجه الأول والوجه الثالث: أي بأن يكون فيها تمثيلية ومكنية في وقت واحد، وهو اختيار الطاهر ابن عاشور.

وطريقة إجرائها على هذا أن تقول: شُبِّهت الحالة بالحالة، وحذف لفظ المشبه به وهو المركب الدال على الركوب، كأن يقال: رَاكِبِين مطية الهدى، وأبقى ما يدل على المشبه وهو (أولئك) و(هدى)، ورمز للمركب الدال على المشبه به بشيء من لوازمه وهو لفظ (على) الدال على الركوب عُرفاً[98].

هذا مجموع ما استقرأته من أقوال المفسرين في الاستعارة في هذه الآية، فمنهم من جعلها مفردة؛ تصريحية أو مكنية _ كما رأيت _، ومنهم مَن جعلها تمثيلية فقط، ومنهم مَن جَوَّز اجتماع التمثيلية مع التصريحية أو المكنية[99]، فتحصل من ذلك تلك الأقوال الخمسة.

وهذا مقام يقتضي البَسْط والتَّعْليلَ، وبيان وِجهة كلٍّ من الفريقين في هذا الخَطْب[100]؛ ليُفهم حق الفهم.

أ- تعليل المانعين:

قال السيد الشريف: يجب أن تكون الاستعارة التمثيلية عدة ألفاظ؛ إما محقَّقَةً كلُّها، أو أهمُّها، أو عمدتُها محققٌ والباقي مُخَيَّلٌ يُنوى في الإرادة بلا ذكر، ومع ذلك يكون المستعار مركَّبا من تلك الألفاظ المحققة والمخيلة، وعلى هذا كان ينبغي أن تُذكر جميع الألفاظ الدالة على الهيئة الثانية ويراد بها الهيئة الأولى، بأن يقال مثلا: (أولئك على رواحل من ربهم)، أو (أولئك على مطية الهدى)، فيكون مجموع تلك الألفاظ استعارةً تمثيليةً كلٌّ من طرفيها ولفظها مركب (أي هيئة الأجزاء)، وفهم المعتلي والمعتلى عليه لا بد أن يكون قصدا لا تبعا، فكل واحد منهما ملحوظ قصدا؛ لتعتبر هيئة مركبة منها، فلا بد أن يكونا مقدرين في الإرادة، وأما تقديرها في نظم الكلام فغير واجب، بل ربما كان موجبا لتغيير نظمه، كما إذا قلت: أولئك على رواحل من ربهم.

ولا يكفي استلزام معنى الحرف لها إلا أنه اقتصر في الذكر على كلمة (على)؛ لأن الاعتلاء هو العمدة في تلك الهيئة؛ إذ بعد ملاحظته تكون ملاحظة الهيئة، بخلاف مذهب السعد _كما سيأتي_، فيكفي بلا اعتبار تقدير لفظ[101].

ووجه جعلنا إياها مؤذنة بتقدير مركوب دون كرسي أو مسطبة[102] مثلاً؛ لأن ذلك هو الذي تسبق إليه أفهامهم عند سماع ما يدل على الاستعلاء[103]؛ إذ الركوب هو أكثر أنواع استعلائهم فهو الحاضر في أذهانهم، ولذلك تراهم حين يصرِّحون بالمشبَّه به أو يرمزون إليه، لا يذكرون إلا المركوب وعلائِقَه، فيقولون: جعل الغَواية مركباً، وامتطى الجهل، واقتعد غارب الهوى[104]، وقالوا في الأمثال: ركب متن عمياء، وتخبط خبط عشواء[105].

وقال النابغة يهجو عامر بن الطفيل الغنوي:

فإن يكُ عامر قد قال جَهْلا *** فإن مَطِيَّةَ الجَهْلِ الشبابُ[106]

وقد انتصر السيوطي لمذهب السيد الشريف في حاشيته على البيضاوي، ومنع اجتماع التمثيلية والتبعية ألبتة، ونسب مذهب الطيبي والسعد إلى الوهم في فهم كلام صاحب المفتاح[107].

ب- تعليل المجيزين:

وأما القائلون باجتماع التبعية والتمثيلية[108] فيقولون: يُشتَرَط في التمثيلية التعدد كما هو متفق عليه عند جميع العلماء، لكن يكفي أن يكون اللفظ الدالُّ عليها لفظا مفردًا، مثل (على) اعْتُبِر في مدلوله التعدد، ولو بحسب القرينة الخارجية.

فلفظ (على) يدل على الاستعلاء دلالة مطابقية، وعلى البواقي (الراكب، والمركوب) دلالة التزامية؛ لاستلزام الاعتلاء للراكب والمركوب؛ لأنها نسبة بينهما فلا تتصور إلا بعد تصورهما، ولا يكون المستعار، أي اللفظ الدال على المشبه به، وهو (على) حينئذ مركبا يدل جزؤه على جزء معناه، بل هو لفظ مفرَدٌ؛ لأن اللفظ لا يكون مركبا باعتبار المدلول الالتزامي الذي دل على اعتباره القرينة الخارجية. وانتزاع كلٌّ من طرفيه من عدة أمور لا يوجب تركبه.

ونظير التعدد في المأخذ (أي مكان الأخذ) مع عدم التركب (الحيوان) الذي هو جزء للإنسان؛ فإنه منتزع من أمور متعددة وهي: جسمٌ نامٍ حسَّاسٌ متحركٌ بالإرادة، ومع هذا فهو مفرد بلا خفاء، ففيه وحدة اعتبارية، أي اعتبار هيئة أشياء ثم يؤخذ أمر يلاحظ مفردا مضافا لها كالإضافات مثل الأبوة والبنوة، و كمعنى الاستعلاء، ومثل (جيش) فهو مركب من أفراد متعددة لكن بينها وحدة اعتبارية، فيقال: جيش واحد.

فالمركب قد يوصف بالوحدة الحقيقية كبدن واحد، وقد يوصف بالوحدة الاعتبارية كجيش واحد وعسكر واحد، فلتكن الهيئة المنتزعة من الأمور المتعددة هنا كذلك.

فالمشبه به في الآية الكريمة منتزع من أمور متعددة وهي:

(الراكب، والمركوب، واعتلاؤه، والقدرة، والتمكن من تصريفه).

وهذا أي الانتزاع من المتعدد (بأن تكون هيئة المشبه والمشبه به منتزعة من متعدد) شرطٌ في كل من المشبه والمشبه به عند جميع العلماء يستوي فيه السّعْدُ ومن أيَّده، و السيد الشريف ومن أيَّده فهو أمر متفق عليه، لكن اللفظ المستعار أي لفظ المشبه به لا يُشترط _ عند السعد ومن أيَّدَه _ أن يكون مركَّبا يدل جزؤه على جزء معناه، بل يكفي أن يعبر عن تلك الهيئة بعد انتزاعها بلفظ مفرد مثل (على، وفي، ونحوهما) يدل عليها إجمالًا، بأن يدل على بعضه كالاستعلاء دلالة مطابقة، وعلى الباقي التزاما بقرينة خارجية، ف (على) يُفهِم الاعتلاء وضعا؛ لأنه وُضِعَ للاعتلاء؛ فيُفهم منه أولًا، ثم ينتقل للازمية المعتلي والمعتلى عليها، فيفهمان منه تبعا له واستلزاما، واللفظ لا يكون مركبا باعتبار المدلول الالتزامي الذي دلَّ على اعتباره القرينة الخارجية، فلجريان الاستعارة في الحرف باعتبار المعنى المطابقي تكون تبعية[109]، ولكون كل من الطرفين حالة إضافية منتزعة من أمور عديدة تكون تمثيلية[110]، وقرينة اعتبار الهيئة هنا: مدحه سبحانه وتعالى لهم، بأنهم لكمال تمسكهم وتمكنهم على الهدى بأن حالهم وهيأتهم مشابهة لحال من اعتلى الشيء، واضحةٌ كَنارٍ على عَلَمٍ، فإذا قامت القرينة على الشيء يجب اعتباره؛ فاجتمع فيها _ كما قال السعد _ استعارتان؛ تبعية وتمثيلية معا؛ لأنه لما شَبَّه كمال تمسكهم بالهدى باعتلاء الراكب فحصلت التبعية،جاز أن تعتبر هيئة منتزعة من المتقي والهدى وتمسكه به مشبهة بهيئة منتزعة من الراكب والمركوب واعتلائه عليه، وتلك الهيئة مفهوم بعضها من حرف الاستعلاء وهو الاعتلاء بالمطابقة، ومفهوم بعضها الباقي بالالتزام، فتحصل التمثيلية بلا تركب في اللفظ المستعار، فالحيثيتان متغايرتان؛ فلا منافاة في جمعهما، وليس المراد أن الحرف استعارة تمثيلية باعتبار كونها استعارة تبعية؛ إذ لا يتصور ذلك من العاقل فضلا عن شيخ الأفاضل السعد، بل المراد ما ذكرناه من اعتبار الحيثيتين، واجتماع المتقابلات بالحيثيات شائع ذائع في المحاورات[111].

* حاصل الخلاف:

أنه لا بد من أن يوجد التعدد في طرفي التمثيلية أي في كل من المشبه والمشبه به اتفاقا بين العلماء فتُنْتَزَعُ الهيئة من المتعدد، لكن لا يُشترط التركيب في الدال على هذا التعدد.

فالدال على هذا التعدد وهو لفظ المشبه به، يكفي عند الطيبي والسعد أن يكون لفظا مفردا اعتُبر في مدلوله التعدد كلفظة (على). بخلاف السيد الشريف فقد اشترط التركيب بأنْ يدل جزؤه على جزء معناه، فلا بُدَّ أن يكون مركبا من عدة ألفاظ؛ إما محققة كلها، أو أهمها، أو عمدتها محقق والباقي مُخَيَّلٌ يُنوى في الإرادة بلا ذِكْر، ومع ذلك يكون المستعار مركبا من تلك الألفاظ المحققة والمخيلة[112].

ومِنْ أَحْسَنِ مَن دخل في الحكومة بين هذين الفريقين، محرِّرًا أصل المسألة، ومنَوِّرًا أوجه الخلاف فيها، ثم رَجَّح بالقولِ الفصلِ، والمذهب الفحلِ، صاحبُ التحرير والتنوير _ عليه شآبيب الرحمة _ حيثُ قال: " وقد انتصر سعد الدين التفتزاني لوجه التمثيلية، وانتصر السيد الجرجاني لوجه التبعية. واشتَدَّ السيدُ في إنكار كونها تمثيليَّةً، ورآه جمعاً بين متنافيين؛ لأن انتزاع كل من طرفي التشبيه من أمور متعددة يستلزم تركبه من معان متعددة، كيف ومتعلَّق معنى الحرف من المعاني المفردة كالاستعلاء هنا. فإذا اعتُبر التشبيه هنا مركباً استلزم أن لا يكون معنى (على) ومتعلقُ معناها مشبهاً به ولا مستعاراً منه لا تبعاً ولا أصالة، وأطال في ذلك في (حاشيته للكشاف) و(حاشيته على المطول)، كما أطال السعد في (حاشية الكشاف) وفي (المطول)، وتراشقا سهام المناظرة الحادة.

ونحن ندخل في الحكومة بين هذينِ العَلَمَيْنِ، بأنه لا نزاع بين الجميع أن في الآية تشبيهَ أشياءٍ بأشياءٍ على الجملة، حاصلة من ثبوت الهدى للمتقين، ومن ثبوت الاستعلاء على المركوب، غير أن اختلاف الفريقين هو في تعيين الطريقة الحاصل بها هذا التشبيه؛ فالأكثرون يجعلونها طريقة التمثيلية بأن يكون تشبيه تلك الأشياء حاصلاً بالانتزاع والتركيب لهيئة. والسيد يجعلها طريقة التبعية بأن يكون المشبه والمشبه به هما فردان من تلك الأشياء، ويحصل العلم ببقية تلك الأشياء بواسطة تقييد المفردين المشبه والمشبه به، ويجوِّز طريقة التمثيل وطريقة المكنية. فينصرف النظر هنا إلى:

1- أي الطريقتين أرجح اعتباراً، وأوفى في البلاغة مقداراً.

2- وإلى أن الجمع بين طريقتي التمثيلية والتبعية هل يعد متناقضاً في اعتبار القواعد البيانية كما زعمه السيد؟"[113].

أما المسألة الأولى فقد رجح فيها الطاهرُ كِفَّةَ التمثيليةَ؛ لأنها أوضح، وأبلغ، وأشهر، وأسعد بكلام (الكشاف)، قال: "تقرر في علم البيان أن أهله أشد حرصاً على اعتبار تشبيه الهيئة فلا يعدلون عنه إلى المفرد مهما استقام اعتباره، ونحن نجد اعتبار التمثيلية في الآية أرجح لأنها أوضح، وأبلغ، وأشهر، وأسعد بكلام (الكشاف).

أما كونها (أوضح)، فلأن تشبيه التمثيل منزع واضح لا كلفة فيه، فيفيد تشبيه مجموع هيئة المتقين في اتصافهم بالهدى بهيئة الراكب إلخ. بخلاف طريقة التبعية فإنها لا تفيد إلا تشبيه التمكن بالاستعلاء ثم يستفاد ما عدا ذلك بالتقييد.

وأما كونها (أبلغ)؛ فلأن المقام لما سمح بكلا الاعتبارين باتفاق الفريقين _ لا جرم _ كان أَوْلاهُما بالاعتبار ما فيه

خصوصيات أقوى وأعز.

وأما كونها (أشهر)؛ فلأن التمثيلية متفق عليها بخلاف التبعية.

وأما كونه (أسعد بكلام (الكشاف)؛ فلأن ظاهر قوله: (مَثَّل) أنه أراد التمثيل؛ لأن كلام مثله من أهل هذه الصناعة لا تخرج فيه اللفظة الاصطلاحية عن متعارف أهلها إلى أصل المعنى اللغوي[114].

وأما المسألة الثانية _ وهي مقصود الحديث _ فقد صَحَّح فيها مذهب السعد، وهو جواز الجمع بين التمثيلية والتبعية، بقوله: " فإذا صح أن التمثيلية أرجح فلننقل الكلام إلى تصحيح الجمع بينها وبين التبعية وهو المجال الثاني للخلاف بين العلامتين فالسعد والطيبي يجوِّزان اعتبار التبعية مع التمثيلية في الآية، والسيد يمنع ذلك _ كما علمتم _ ويقول: إذا كان التشبيه منتزعاً من متعدد، فقد انتزع كل جزء في المشبَّه من جزئي المشبَّه به، وهو معنى التركيب؛ فكيف يعتبر بعض المشبه به مستعاراً لبعض المشبه فينتقض التركيب.

وهذا الدليل ناظر إلى قول أئمة البلاغة إن أصل مفردات المركب التمثيلي أن تكون مستعملة في معانيها الحقيقية وإنما المجاز في جملة المركب أي في إطلاقه على الهيئة المشبهة، فكلام السيد وقوف عندها.

ولكن التفتازاني لم ير مانعاً من اعتبار المجاز في بعض مفردات المركب التمثيلي إذا لم يكن فيه تكلف، ولعله يرى ذلك زيادة في خصوصيات إعجاز هذه الآية. ومن شأن البليغ أن لا يفيت ما يقتضيه الحال من الخصوصيات، وبهذا تفاوتت البلغاء كما تقرر في مبحث تعريف البلاغة وحدُّ الإعجاز هو الطرف الأعلى للبلاغة الجامع لأقصى الخصوصيات كما بيناه في موضعه وهو المختار، فلما وُجد في الهيئة المشبهة والهيئة المشبه بها شيئان يصلحان لِأَنْ يُشَبَّه أحدهما بالآخر تشبيهاً مستقلاً غير داخل في تشبيه الهيئة كان حق هذا المقام تشبيه التمكن بالاستعلاء، وهو تشبيه بديع وأشير إليه بكلمة (على)، وأما غير هذين من أجزاء الهيئتين فلما لم يحسن تشبيه شيء منها بآخر أُلْغي التشبيه المفرد فيها؛ إذ لا يحسن تشبيه المتقي بخصوص الراكب، ولا الهُدى بالمركوب؛ فتكون (على) على هذا الوجه بعضاً من المجاز المركب دليلاً عليه باعتبار، ومجازاً مفرداً باعتبار آخر"[115].

ومما يزيد المذهبين بيانًا، وينتصر للطيبي والسعد، ما ألمع إليه شهاب الدين الآلوسي _ رحمه الله _ مِنْ أنَّ انتزاع شيء من أمور متعددة يكون على وجوه شتى:

1- فقد يكون من مجموع تلك الأمور كالوحدة الاعتبارية، بأن يلاحظ وحدة مأخوذة من مجموع أمور متعددة مع أنها لا تركيب فيها، كالوحدة الاعتبارية الملاحظة في جيش مع أنه مركب من أفراد متعددة، وكالوحدة الملاحظة في الحيوان: الذي هو جزء للإنسان فإنه منتزع من أمور متعددة، وهي: جسمٌ نامٍ حسَّاسٌ متحركٌ بالإرادة، وهنا بعد ملاحظة التعدد في التمثيلية يلاحظ بينها وحدة اعتبارية فيكون فيها تعدد لا تركيب بل هو مفرد[116].

2- وقد يكون من أمر بالقياس إلى آخر كالإضافات، والإضافة: هي نسبة بين شيئين يقتضي وجودُ أحدهما وجودَ الآخر، كالأبوّة والبنوّة، فالأبوّة: تُعقَل بالقياس إلى البنوّة، والبُنُوّة أيضا نسبة تعقل بالقياس إلى الأبوّة، وهنا الاستعلاء الذي أجرينا فيه التبعية لا يفهم إلا بمُسْتَعْلٍ ومستعلى عليه، فهنا تعدد لكن لا يوجد تَرَكُّبٌ بل هو مفرد، فكل من التبعية والتثميلية جرت في مفرد، وهذا الذي قاله السعد[117].

3- وقد يكون بعضه من أمر وبعضه من آخر، مثل أن نقدر أجزاء محذوفة في مثالنا مثل تقدير: راكب ومركوب، وعلى هذا يكون مركبا، وهذا الذي قاله السيد.

وعلى الأَوَّلَيْنِ لا يقتضي تركيبه، بل تعدد مأخذه؛ فاتضح أنه لا منافاة بين كون الاستعارة تبعية وتمثيلية، وبهذا يندفع اعتراض السيد أن السعد جمع بين متنافيين؛ لأن انتزاع كل من طرفي التشبيه من أمور متعددة يستلزم تركبه من معان متعددة، ومعلوم أن الاستعارة التبعية في الحرف جرت في مفرد؛ لأن متعلَّق الحرف مفرد كالاستعلاء والظرفية فيحصل التنافي؛ فالتمثيلية تقتضي التركب، والتبعية تقتضي الإفراد[118].

هذا ما تَيسَّرَ إيرادُه، وتهَيَّأَ إعدادُه حول الاستعارة التمثيلية، ومباحثها عند العلامة الطيبي في كتابيه: (التبيان)، و(فتوح الغيب).

واللهَ أسأل أن يجعلَ ما كتبته ذُخرا ليوم المعاد، ومحلّاً للقبول بين العباد، وصلى الله على سيدنا محمد، خير من وَطِئ النِّجاد والوِهاد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

خاتمة

أبرز نتائج البحث:

1- درسَ العَلَّامة الطيبيُّ الاستعارةَ التمثيليةَ في كتابيه: (التبيان) و(فتوح الغيب)، دراسة نظرية تطبيقية قَدَّمت نظرية متكاملةً لهذه الاستعارة عند الدارسين؛ فبَيَّنَ مفهومها، وأهميتها، ومشتَملاتِها، وما يتصل بها.

2- المعتَبَر في التفريق بين الاستعارة التمثيلية والمفردة عند الإمام الطيبي هو الجامع؛ فإن كان الجامع واحدا فهي استعارة مفرَدة، وإن كان هيئة تركيبية فهي تمثيلية.

3- يكتسب التمثيلُ مزيَّتَه _ في نظر الطِّيبي _ من الهيئةِ الحاصلة من تقارن الصور، وكيفيَّاتها المُتَضامَّة.

4- تشمل الاستعارة التمثيلية عند الطيبي ثلاثة أمور: الأمثال السائرة، والتراكيب التي تُؤخَذُ فيها الصورة كاملة، والتشبيهَ التمثيليَّ إذا فشا استعماله على سبيل الاستعارة.

5- ينقسم النوع الثاني من التمثيل _ وهو التراكيب التي تُؤخَذُ فيها الصورة كاملة _ عند الطيبي إلى قسمين: تحقيقيٍّ، وتقديريٍّ؛ أما التحقيقي: فيكونَ (المُمَثَّل به) فيه أمورًا لها تحقُّقٌ في الخارج، وأما التقديريُّ فيكونَ (المُمَثَّل به) فيه أمورًا متخيَّلةٍ لا تحقُّق لها في الخارج ولا في الذهن، أو أمورًا عقليةً موجودة في الذهن.

6- اعتنى الطيبي ببيان استعمال الزمخشري لمصطلح (التمثيل) على اختلاف مدلولاته في الكشاف. كما أنه لم يُسَلِّم للزمخشري عند كل المواضع التي قرَّر فيها بالتمثيل، بل ناقشه في بعضها، وردَّ بعضها إلى الحقيقة.

7- جَوَّز الطيبي اجتماع الاستعارة التمثيلية والتبعية، وهو أبو عُذْرَةِ هذه المسألة، والحائزُ فيها قصَب السَّبق، لا كما يُشتهر من نسبتها إلى السعد التفتازاني.

8- أورد الطيبي في حاشيته أمثلة للاستعارة التمثيلية الواقعة على سبيل التبعية في الحرف، وأمثلة للتمثيلية الواقعة على طريق التبعية في الفعل. تأييداً لمذهبه بالمثال.

9- اشتهرت مسألة إمكان اجتماعَ الاستعارة التمثيلية والتبعية أو منعه بعد المناظرة التي وقعت بين السَّيد الشريف والسعد التفتازاني _ الذي يتبنى مذهب الإمام الطيبي _ في مجلس تيمورخان بسمرقند؛ فمن الفضلاء بعدهم من انتصر للسيد، ومنهم من مال لمذهب الطيبيِّ والسعد، ومنهم من لم يتكلم في الترجيح أصلا؛ تأدُّبًا مع أرباب المذهبين. وأكثر المحققين على مذهب الطيبيِّ والسعد.

الهوامش

1) الطِّيبي الحسين بن عبدالله: التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، ص:110، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1425هـ-2004م.
2) الطِّيبي الحسين بن عبدالله: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرَّيب، ج2،ص130 ط1، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الأردن، 1434هـ-2013م.. وقال في التبيان (104): "الجامع في الاستعارة؛ إما أمر واحد، أو في حكم الواحد". ومراده بالاستعارة التي يكون الوجه فيها في حكم الواحد الاستعارةُ التمثيلية.
3) كذا الحال عند الزمخشري، والرازي.
4) انظر: أبا موسى د. محمد محمد: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص479-480، ط2، مكتبة وهبة، مصر، 1408هـ-1988م.
5) وهلال د. أحمد هنداوي: المباحث البيانية في تفسير الفخر الرازي، ص110 -113، 322، ط1، مكتبة وهبة، مصر، 1420هـ-1999م.
6) انظر: الصبان محمد بن علي الحنفي: حاشية الصَّبَّان على شرح السمرقندية للعصام، ص165-166، ط1، دار نور الصباح، تركيا، 2012م.
7) الخضري محمد بن مصطفى: حاشية الخضري على شرح العلامة الملَّوي على السمرقندية، ص83، ط2، المطبعة الأزهرية، مصر، 1349هـ-1931م. ويُستَأنس لهذا بكلام الإمام الطيبي: "ولا يُستَعمل لفظة (مَثَّل) إلا في حالٍ أو صفةٍ لها شأنٌ، وفيها غَرَابة" (التبيان: 94)، وهي عبارة مستَفادةٌ من صاحب الكشاف. انظر: الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج1، ص109 تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. د.ت.
8) قال الطاهر ابن عاشور: "للتشبيه التمثيلي الحظ الأوفى عند أهل البلاغة ووجهه أن من أهم أغراض البلغاء وأولها باب التشبيه وهو أقدم فنونها، ولا شك أن التمثيل أخص أنواع التشبيه لأنه تشبيه هيئة بهيئة فهو أوقع في النفوس وأجلى للمعاني".
9) التونسي محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور (المتوفى: 1393هـ): التحرير والتنوير، ج1، ص244، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م.
10) البيضاوي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (المتوفى: 685هـ): أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، ص62، ط1، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1418هـ.
11) فتوح الغيب (259/2).
12) التبيان: 111، فتوح الغيب (373/2). بيسير تصرُّف.
13) المرجع السابق (238/2).
14) الكشاف (109/1).
15) المازني كعب بن زهير بن أبي سلمى (ت: نحو 26هـ): ديوان كعب بن زهير، ص62، تح: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ -1997م.
16) أي: الميداني.
17) الميداني أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري (المتوفى: 518هـ): مجمع الأمثال، ج1، ص5، تح: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت. د.ت.
18) أي: الزمخشري.
19) وقيل: (رسوس). انظر: المَنْيَاوي مخلوف بن محمد البدوي (1295هـ): حاشية مخلوف على الرسالة البيانية للصبان،

ص:262 المطبعة الوهبية، مصر، 1285هـ.

20) فَرِكَتِ المرأةُ زوجَها تَفْرَكُه، إذا أبغضَتْه. الرازي أبو الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا: معجم مقاييس اللغة، ج4، ص393 تح: عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، 1423هـ – 2002م.

21) فتوح الغيب (223/2–224). وقد بَيَّن الطيبي المراد بـ (ضَرْب المَثَل) بقوله: "ضَرْبُ المَثَل: اعتمادُه وصُنْعُه، مِنْ ضَرْبِ اللَّبِنِ والخاتَم" المرجع نفسه: (207/9).

22) السكاكي يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: 626هـ): مفتاح العلوم، ص349، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1407هـ – 1987م.

23) فتوح الغيب (240/12).

24) المرجع السابق (165/9).

25) التبيان: 110.

26) فتوح الغيب (227/2).

27) العمادي أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ): إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج:7، ص161، دار إحياء التراث العربي، بيروت. د.ت.

28) الكشاف (563/2).

29) فتوح الغيب (107/9–108).

30) انظر: المرجع السابق (372/2–373، 278).

31) وهو اصطلاح كثير من المفسرين، وعلماء البيان.

32) قال الإمام الخضري في حاشيته (90): "قد تكون التمثيلية من أمورٍموجودة في الخارج، وتُسمَّى (تحقيقية)، أو من أمورٍ موجودة في الذهن، وتُسمَّى (عقلية)، أو من أمور متخيَّلةٍ لا تحقُّق لها في الخارج ولا في الذهن، وتسمى (تخييلية)".

33) فتوح الغيب (229/7). قاله شرحا لما جاء في الكشاف (253/2): "مَثَّلَ حالهم في طَلَبِهم أن يُبطلوا نبوّة محمد _ صلى الله عليه وسلم _ بالتكذيب، بحالِ مَن يريد أن ينفخ في نور عظيمٍ مُنبَثٍّ في الآفاق _ يريد الله أن يزيده ويُبَلِّغَه الغايةَ القصوى في الإشراق والإضاءة _ ليُطفِئَه بِنَفخِه ويَطمُسَه."

34) انظر: فتوح الغيب: (274/2)، (203/4)، (99/14).

35) وهو ما يُعَبَر عنه الزمخشري بـ (التمثيل والتخييل) انظر: الكشاف (166/2، 193)، (280/4). وبَيَّنه بقوله: "أن يكونَ المُمَثَّل به مفروضًا، والمفروضات تُتَخَيَّل في الذهن كما المحققات "الكشاف (374/3). قال الطيبي: المراد بالتخييل: التصوير. انظر: فتوح الغيب 430/13).

36) التبيان:111، وعبارته مستفادة من الكشاف (574/3).

37) الكشاف (573/3).

38) المرجع السابق (574/3).

39) انظر: فتوح الغيب (489/12–490).

40) المرجع السابق (491/12).

41) وفيها خمسة أوجه ذكرها الزمخشري، ووجَّهها الطيبي جميعَها. انظر: المرجع السابق (131/2–143). وهذه الأقوال الكثيرة أنتَجَها اضطراب المعتزلة في هذه الآيةِ ونظائرِها. راجع: أنوار التنزيل (42/1).

42) أي على المثال السابق. وهو قوله تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) [الأحزاب: ٧٢].

43) التبيان: 111– 112.

44) قال _ رحمه الله _ "المرادُ بهِ إحداثُ حالةٍ تجعل قلوبهم بسبب تماديهم في الغي وانهماكِهم في التقليد، وإعراضِهم عن منهاج النظر الصحيح، بحيث لا يؤثر فيها الإنذار ولا ينفُذُ فيها الحقُّ أصلاً، على طريقة.. التمثيل؛ بأن يُشبه الهيئةُ المنتزعةُ من قلوبهم _ وقد فُعل بها ما فعل من إحداث تلك الحالة المانعة من أن يصل إليها ما خلقت هي لأجله من الأمور الدينية النافعة، وحيل بينها وبينه بالمرة _ بهيئةٍ منتزعةٍ من محالَ مُعدةٍ لحلول ما يَحُلُّها حُلولاً مستتبعاً لمصالحَ مُهمة، وقد مَنَع من ذلك بالختم عليها وحيل بينها وبين ما أعدت لأجله بالكلية". إرشاد العقل السليم (37/1).

45) قال _ رحمه الله _ "ويجوز أن يكون في الكلام استعارة تمثيلية بأن يقال شبهت حال قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم مع الهيئة الحادثة فيها المانعة من الاستنفاع بها بحال أشياء معدة للانتفاع بها في مصالح مهمة مع المنع من ذلك بالختم والتغطية ثم يستعار للمشبه اللفظ الدال على المشبه به فيكون كل واحد من طرفي التشبيه مركبا والجامع عدم الانتفاع بما أعد له بسبب عروض مانع يمكن فيه كالمانع الأصلي وهو أمر عقلي منتزع من تلك العدة" الآلوسي شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: 1270هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج1، ص134–135، ط1، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ.

46) قال _ رحمه الله _ "ولك أن تجعل الختم والغشاوة تمثيلاً بتشبيه هيئة وهمية متخيلة في قلوبهم أي إدراكهم من التصميم على الكفر وإمساكهم عن التأمل في الأدلة كما تقدم بهيئة الختم". التحرير والتنوير (255/1).

47) إشارة إلى المثل المشهور: "إني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى " للمتردد بين الأمرين لا يدري أيهما أحرى.

48) انظر: حاشية الخضري: 89. أنوار التنزيل (42/1).

49) ويدخل تحت هذا القسم تسبيح الجمادات وسجودها هل هو حاصل بالتسخير أو بالاختيار، وهل مخاطبة الله لها تمثيل. أو أن الخَلّاق العظيمُ _ سبحانه _ يخاطب الجمادات كما يتخاطب العقلاء، بأن يخلق فيها إدراكا تقتدر معه على الخطاب. انظر: فتوح الغيب (131/9، 306)، (458/10).

50) الكشاف (722/4–723).

51) السِّكَنْدَري ابن المُنَيِّر أحمد بن محمد بن منصور (683هـ): الانتصاف فيما تضمنه الكشاف، ج4، ص: 722، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407 هـ.

52) فتوح الغيب (345/16–346).

53) ومشتقاتها، كقوله: مَثَّلَ حَالَ../ هذا مَثَلٌ..

54) الكشاف (90/1).

55) مفتاح العلوم: 349.

56) الكشاف (90/1).

57) فتوح الغيب (136/2).

58) انظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: 479.

59) أي استعارة مفردة.

60) الجامع: هو ما قصد اجتماع الطرفين فيه، وهو ما يسمى في التشبيه "وجه الشبه"، وسمي هنا "جامعا"؛ لأنه جمع المشبه مع أفراد المشبه به تحت مفهومه وأدخله في جنسه ادعاء. انظر: عوني، حامد: المنهاج الواضح للبلاغة، ج3، ص239، ط1، المكتبة الأزهرية، مصر، 1432هـ-2012م.

61) أي: صورة منتَزَعَةٌ من متعدد، ويقال لها _ أيضاً_: هيئة تركيبية.

62) أي: الزمخشري.

63) الكشاف (423/1).

64) الجُعْفِيُّ أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت 354هـ): ديوان المتنبي، ص 268، دار بيروت، بيروت، 1403هـ - 1983م.

65) فتوح الغيب (130/2).

66) الكشاف (59/2).

67) قال العلامة الطيبي: "وفي الآية استعارتان تمثيليتان، وتشبيهٌ تمثيلي، أما الاستعارة الأولى: فبيانها ما قال: "مَثَّلَ الذي هداه الله تعالى بمن كان ميْتاً فأحييناه"، والثانية: "مَثَّلَ مَن بقي على الضلالة بالخابطِ في الظُّلُمات لا يَنفَكُّ منها"، والاستعارة الأولى بجملتها مشبَّه، والثانية مشبَّه به، نحوُه في التشبيه قولُه: (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون) [السجدة: ١٨]. فتوح الغيب (233/6). فتأمَّلْ جميع ذاك! والله تعالى يتولى هداك.

68) الكشاف (423/1).

69) فتوح الغيب (203/4)، وانظر: المرجع نفسَه (431/14).

70) الكشاف (375/4).

71) فتوح الغيب (246/15).

72) الكشاف (154/2).

73) فتوح الغيب (595/6).

74) الكشاف (114/3).

75) فتوح الغيب (332/10).

76) الوائلي ميمون بن قيس بن جندل (المتوفى سنة 7هـ-629م): ديوان الأعشى الكبير، ص51، تح: د.محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، الجماميز – مصر، د.ت. والجِفارُ: جمعُ جَفْرٍ، وهو الجَمَلُ الصَّغِيرُ. انظر: لسان العرب (142/4).

77) مجمع الأمثال (419/1).

78) فتوح الغيب (99/14).

79) أي: الزمخشري.

80) الخفاجي شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر المصري الحنفي (المتوفى: 1069هـ): حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسِيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسِيرِ البَيضَاوِي، ج1، ص244، دار صادر، بيروت. د.ت.

81) أي: أول من أظهر مراد صاحب الكشاف.

82) يُقَالُ: فُلَانٌ أَبو عُذْر فُلَانَةٍ إِذا كَانَ افْتَرَعَها وَاقْتَضَّهَا، وأَبو عُذْرَتها. وَقَوْلُهُمْ: مَا أَنت بِذِي عُذْرٍ هَذَا الكلامِ أَي لسْتَ بأَوَّلِ مَنِ اقْتضَه.

83) انظر: الإفريقي محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى (المتوفى: 711هـ): لسان العرب، ج4، ص552، ط3، دار صادر، بيروت، 1414 هـ.

84) أي: السيد والسعد.

85) يقصد تَضَلُّع الإمام ابن الجوزي بعلم الحديث.

86) انظر: روح المعاني (127/1)، حاشية مخلوف: 283-284.

87) انظر: الرسالة البيانية بهامش حاشية مخلوف:284.

88) قال السيوطي: "وما يتوهم من أن عبارة "المفتاح" في استعارة "لعلّ" بينة في اجتماع التبعية والتمثيلية، فهو مضمحل بما لخصناه في شرحه عليه، على وجه لا مزيد عليه". السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (المتوفى: 911هـ): نواهد الأبكار وشوارد الأفكار = حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي، ج1، ص325، الناشر: جامعة أم القرى – كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية (3 رسائل دكتوراة)، 1424هـ - 2005م.

89) فتوح الغيب (109/2).

90) أي: صاحب الكشاف.

91) فتوح الغيب (131/2-132). وهذا أحد خمسة أوجه ذكرها صاحب الكشاف، ووَجَّهَهَا جميعَها الطيبي، ثم أعقبها بقوله: " ولله دَرُّ القائل: وَمُستَودَعات هذا الفن لا تَتَّضح إلا باستبراء خاطرٍ وَقَّاد، ولا تتكشف جواهرها إلا لبصيرةِ ذي طبعٍ نَقَّاد، ثم نقول: مَنْ رُفِع الختمُ عن تفسيره لخَتْمِ الله، فقد حلَّ له الشروع في هذا الكتاب، وقد عُلِمَ أنه من رجال تصدَّوا لكشف الحجاب، وإلا فليترك القوس لباريها، وعند الله العلم بالصواب". انظر: المرجع نفسه (131/2-143).

92) انظر: التحرير والتنوير (243/1)، إرشاد العقل السليم (34/1)، حاشية مخلوف: 284.

93) انظر: التحرير والتنوير (243/1). نواهد الأبكار (323/1)، الرسالة البيانية بهامش حاشية مخلوف: 286.

94) انظر: التحرير والتنوير (243/1). أنوار التنزيل (40/1).

95) التحرير والتنوير (243/1)، إرشاد العقل السليم (33/1).

96) التحرير والتنوير (243/1). عِنَايةُ القَاضِي (244/1).

97) انظر: الرسالة البيانية بهامش حاشية مخلوف: 286. المنهاج الواضح (261/3). نواهد الأبكار (323/1).

98) التحرير والتنوير (243/1). إرشاد العقل السليم (34/1)، الرسالة البيانية بهامش حاشية مخلوف: 286.

99) هكذا يضبطها طلاب العلم الأتراك، سمعتها منهم مشافهة.

100) انظر: حاشية مخلوف على البيانية: 280.

101) الشهير بـ (طاش كبري زاده).

102) انظر: فتوح الغيب (109/2)، التحرير والتنوير (243/1)، حاشية مخلوف على البيانية: 277، الرسالة البيانية بهامش حاشية مخلوف 283. شروح التلخيص، ج4، ص147، دار إحياء الكتب العربية – مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر. د.ت.

103) انظر: روح المعاني (126/1).

104) انظر: الرسالة البيانية بهامش حاشية مخلوف: 285-287.

105) التحرير والتنوير (245/1).

106) قال ابن عاشور: "فتكمل لنا في أقسام التمثيلية الأقسام الثلاثة: الاستعارة كما في الاستعارة المفردة فيكون التمثيل منه مجاز مرسل كاستعمال الخبر في التحسر. ومنه استعارة مصرحة نحو أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، ومنه مكنية كما في الآية على رأينا، ومنه تبعية كما في قول الحماسي:

107) وفارسٍ في غمار الموت منغمسٍ *** إذا تألَّى على مكروهة صدقا

108) فإن منغمس تمثيل لهيئة إحاطة أسباب الموت به من كل جانب بهيئة من أحاطت به المياه المهلكة من كل جانب ولفظ منغمس تبعية لا محالة". المرجع السابق (245/1).

109) والخطب ليس مطلق الشأن، بل هو الشأن العظيم الذي يتخاطب فيه الناس. قال ابن فارس: "والخطب: الأمرُ يقع؛ وإنما سُمِّي بذلك لِمَا يقع فيه من التَّخاطب والمراجعة". معجم مقاييس اللغة (160/2).

110) انظر: حاشية مخلوف: 280. روح المعاني: (126/1)، نواهد الأبكار (323/1–325)، عِنَايةُ القَاضِي (245/1) وقد احتج السيد بكلام صاحب الكشاف: "والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة، لا يتكلف الواحد واحد شيء يقدر شبهه به، وهو القول الفحل والمذهب الجزل، بيانه: أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها من بعض لم يأخذ هذا بحجزة ذاك، فتشبهها بنظائرها، كما فعل امرؤ القيس، وجاء في القرآن، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا بأخرى مثلها" الكشاف (114/1).

111) قال السيد: وهذا يدل على أن كل واحد في المركب مأخوذ على انه شيء برأسه، ملحوظ في نفسه، ثم ضُمَّ لآخر مثلِه، وأخذ بحجزته حتى صار الكل شيئا واحدا، وظاهرٌ أن ما كان مفهوما من لفظٍ واحدٍ ليس كذلك. ا.هـ. حاشية مخلوف: 281.

112) المسطبة: مكانٌ مُمهَّد مرتفع قليلاً يقعد عليه، وَيُقَالُ للدُّكَّانِ يَقْعُدُ الناسُ عَلَيْهِ مَسْطَبَة. انظر: لسان العرب (467/1).

113) الزَّبيدي محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى (المتوفى: 1205هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، ج3، ص59، دار الهداية. د.ت.

114) قال في الكشاف: "وقد صرحوا بذلك في قولهم: جعل الغواية مركبا، وامتطى الجهل واقتعد غارب الهوى" الكشاف (85/1).

115) قوله: (واقتعد غارب الهوى): الغارب من الْبَعِير مَا بَين السنام والعنق وَهُوَ الَّذِي يلقى عَلَيْهِ خطام الْبَعِير إِذاأرسل ليرعى حَيْثُ شَاءَ وَيُقَال للْإِنْسَان حبلك على غاربك اذْهَبْ حَيْثُ شِئْت وَهُوَ من كنايات الطَّلَاق أَيْضا،.وفي "الهوى" استعارة مكنية، وفي "غارب" استعارة تخييلية حيث أثبت الغارب للهوى، وفي اقتعد ترشيح واقتعد بمعنى ركب فإنه افتعال من القعود استعمل هنا في الركوب فإنه من أفراد القعود فيكون ترشيحا للمكنية، شبه الهوى بالمطية على طريقة الاستعارة المكنية، وخيل بإثبات الغارب، ورشح بذكر الاقتعاد، وكذلك يقال في (امتطى الجهل) أي ركبه واتخذه مطية شبه الجهل بالمطية وأثبت لازم المشبه به وهو الامتطاء للمشبه، ويجوز أن يكون (امتطى) من الاستعارة التصريحية التبعية حيث شبه الاتصاف بالجهل والاستقرار عليه بامتطاء المطية فذكر المشبه به وأريد المشبه، ثم اعتبر ذلك في الفعل الذي هو امتطى تبعا للمصدر، والجهل قرينة، وقيل: امتطى الجهل من باب التشبيه البليغ؛ لأن معناه اتخذ الجهل مطية وهو في حكم الجهل مطية في أنه من باب التشبيه نحو زيد أسد وهذا ليس بصحيح.

116) انظر: فتوح الغيب (109/2–110)، الانتصاف (45/1)، نواهد الأبكار (326/1). عِنَايةُ القَاضِي (247/1).

117) الخَبْطُ ضرب البعير الشيءَ بخُفِّ يدِه.. قَالَ زُهَيْرٌ:

118) رأَيتُ المَنايا خَبْطَ عَشْواء مَنْ تُصِبْ... تُمِتْه، ومَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ.

119) يَقُولُ: رأَيتها تَخْبِطُ الخَلْقَ خَبْطَ العَشْواء مِنَ الإِبل، وَهِيَ الَّتِي لَا تُبْصِرُ، فَهِيَ تَخْبِطُ الْكُلَّ لَا تُبْقِي عَلَى أَحد، فَمِمَّنْ خَبَطَتْه المَنايا مَنْ تُمِيتُه، وَمِنْهُمْ مَنْ تُعِلُّه فيبرأُ والهَرَمُ غايتُه ثُمَّ الْمَوْتُ. وَفُلَانٌ يَخْبِط فِي عَمْياء إِذا رَكِبَ مَا رَكِبَ بجَهالةٍ. انظر: لسان العرب (280/7).

120) الذبيانيّ زياد بن معاوية بن ضباب الغطفانيّ المضري (المتوفى نحو: 18 ق.هـ = نحو 604م): ديوان النابغة الذبياني، ص109، ط2، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة. د.ت.

121) نواهد الأبكار (324/1–325).

122) ومن أبرزهم العلامة الطيبي، والسعد التفتازاني.

123) لجريانها أولا في متعلق معنى الحرف، وتبعيتها في الحرف.

124) أورده الدُّسوقي في حاشيته على شرح السعد. انظر: شروح التلخيص (147/4).

125) انظر: حاشية مخلوف: 276 وما بعدها.

126) انظر: حاشية مخلوف: 283، عِنَايةُ القَاضِي (246/1).

127) التحرير والتنوير (243/1).

128) التحرير والتنوير (243/1–244).

129) المرجع السابق (244/1–245).

130) انظر: حاشية مخلوف: 278، 281).

131) انظر: المرجع السابق: 283).

132) انظر: روح المعاني (127/1). حاشية مخلوف: 278، 283، 287.

المصادر والمراجع

أبو موسى د. محمد محمد: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ط2، مكتبة وهبة، مصر، 1408هـ–1988م.

الإفريقي محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى (المتوفى: 711هـ): لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1414هـ.

الآلوسي شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: 1270هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط1، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415 هـ.

البيضاوي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (المتوفى: 685هـ): أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ط1، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1418هـ.

التونسي محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور

(المتوفى: 1393هـ): التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997 م.
الجعفي أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت 354هـ): ديوان المتنبي، دار بيروت، بيروت، 1403هـ- 1983م.
الخضري محمد بن مصطفى: حاشية الخضري على شرح العلامة الملَّوي على السمرقندية، ط2، المطبعة الأزهرية، مصر، 1349هـ-1931م.
الخفاجي شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر المصري الحنفي (المتوفى: 1069هـ): حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، دار صادر، بيروت. د.ت.
الذبيانيّ زياد بن معاوية بن ضباب الغطفانيّ المضري (المتوفى نحو: 18ق.هـ = نحو 604م): ديوان النابغة الذبياني، ص109، ط2، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة. د.ت.
الرازي أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكَرِيّا: معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، 1423 هـ - 2002م.
الزَّبيدي محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى (المتوفى: 1205هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية. د.ت.
الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. د.ت.
السكاكي يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: 626هـ): مفتاح العلوم، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1407 هـ - 1987 م.
السِّكَنْدَري ابن المُنَيِّر أحمد بن محمد بن منصور (683هـ): الانتصاف فيما تضمنه الكشاف، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ.
السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (المتوفى: 911هـ): نواهد الأبكار وشوارد الأفكار = حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي، الناشر: جامعة أم القرى - كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية (3 رسائل دكتوراة)، 1424هـ-2005م.
شروح التلخيص، دار إحياء الكتب العربية – مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر. د.ت.
الصبان محمد بن علي الحنفي: حاشية الصَّبَّان على شرح السمرقندية للعصام، ط1، دار نور الصباح، تركيا، 2012م.
الطِّيبي الحسين بن عبدالله: التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1425هـ-2004م.
الطِّيبي الحسين بن عبدالله: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرَّيب، ط1، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الأردن، 1434هـ-2013م.
العمادي أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ): إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت. د.ت.
عوني، حامد: المنهاج الواضح للبلاغة، ط1، المكتبة الأزهرية، مصر، 1432هـ-2012م.
المازني كعب بن زهير بن أبي سلمى (ت: نحو 26هـ): ديوان كعب بن زهير، تح: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ -1997م.
المَنْيَاوي مخلوف بن محمد البدوي (1295هـ): حاشية مخلوف على الرسالة البيانية للصبان، المطبعة الوهبية، مصر، 1285هـ.
الميداني أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري (المتوفى: 518هـ): مجمع الأمثال، تح: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت. د.ت.
هلال د. أحمد هنداوي: المباحث البيانية في تفسير الفخر الرازي، ط1، مكتبة وهبة، مصر، 1420هـ-1999م.
الوائلي ميمون بن قيس بن جندل (المتوفى سنة 7هـ-629م): ديوان الأعشى الكبير، تح: د.محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، الجماميز – مصر، د.ت.

Representative Metaphor by Imam AL-Tibi, Applied and Theoretical Study

*Omar A. Al-Zoubi, Suliman Al-Dgour **

ABSTRACT

This study relies on the recommendation of a rhetorical research at Al_Tibi's interpretation "Al_Kashaf" which is representative metaphor. The main goal was to explain the concept of representative metaphor, its importance and the revenues of this kind at Al_Tibi's interpretation " Al_Kashaf". It also aimed to explain how Al_Tibi revise the concept of representation at Al_Zamakhashary, and also to clarify the point of view of Al_Tibi from mixing the two types representative metaphor together and it aimed to converge Al-Tibi's views with other scholars'.

The researcher followed the inductive method in addition to the descriptive and analytical approaches by representing Al-Tibi's opinion about the representative method, analyzing his words and clarifying his method at this issue.

The study concluded with the following results: the meaning of the difference between representative metaphor and word-to-word metaphor for Al_Tibi is whether the reference is a single or compound word. This kind of metaphor cn includes three types: proverbs, representative simile that may be used as a metaphor and compositions in which the whole should be taken weather investigating or discretionary. The most important thing is that Al_Tibi accepted the compensation between representative metaphor and dependent metaphor and he was the first to do this.

Keywords: Representative Metaphor, Al_Tibi, Al_Kashaf.

* Faculty of Shari'a; The University of Jordan, Jordan. Received on 16/06/2016 and Accepted for Publication on 04/07/2016.